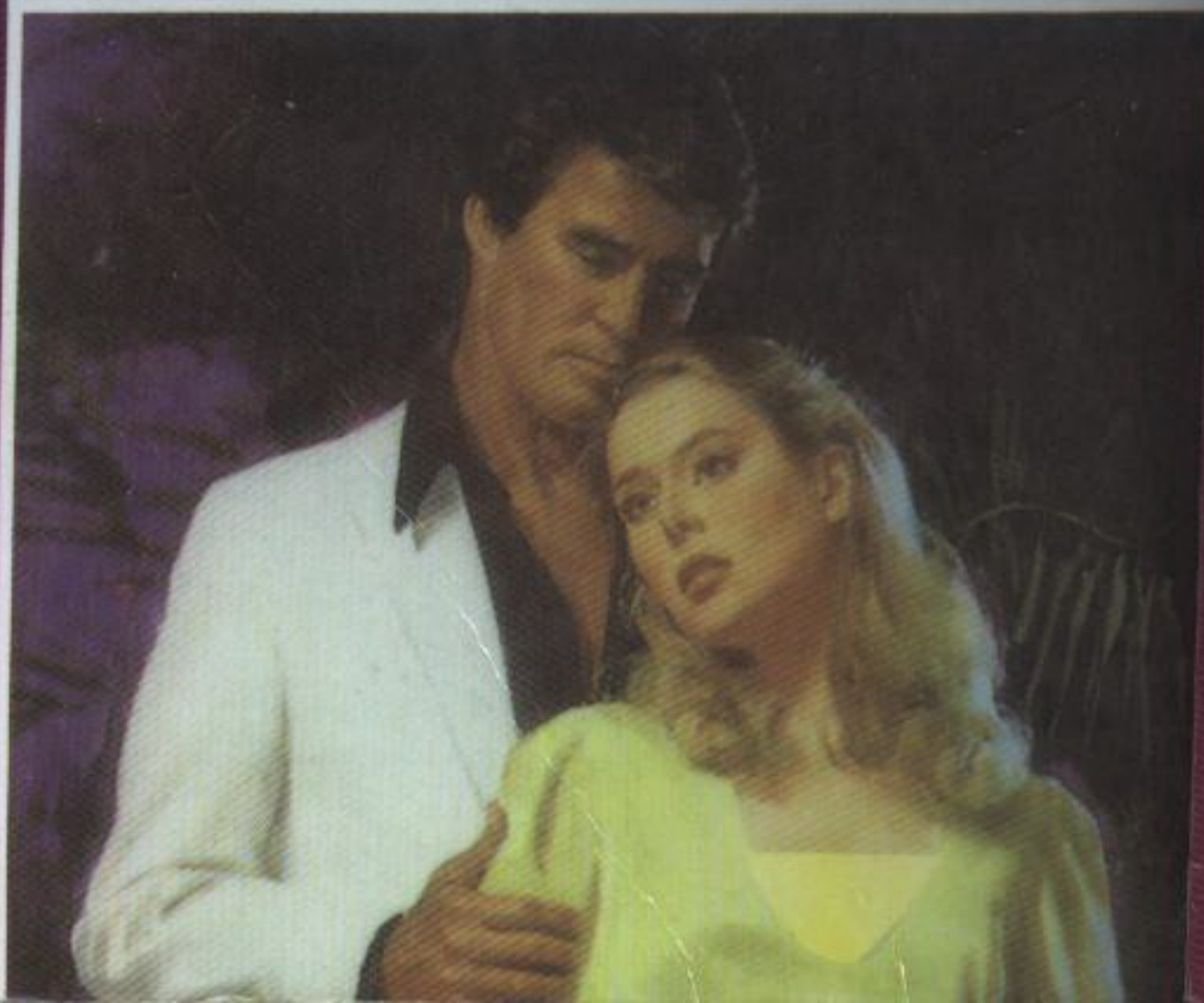


مجلة
روايات أحلام



لو تحكي الدموع



www.liilas.com

Aml مجلة روايات أحلام

لو تحكي الدموع

«لقد شاهدت هالة الانتقام ترفرف فوق رأسك منذ أن وقفت على عتبة القصر كملكة، ولكن هذا لن يقلقني فقبل وقت طويل ستغادرين وأنت تتجرعين مرارة الندم».

لم تردع هذه النبوءة راوينا عن الماضي في مخططها فعهد السحرة قد ولى، وهي قد اقتحمت قصر «الطاعون الاسود» اللورد كالدونيان، وأوقعته في حبائلها، ولم يبقَ إلا انتظار اللحظة المناسبة لتقطف ثمار انتقامها.

ولكن لماذا هذا الصوت الضعيف في أعماقها يحذرهما: هذا اللورد أخطر مما تظنين وإذا وقع فلن يكون وحده!

لبنان ٢٠٠٠ ل.ل.	الإمارات ٦٠٠ د.	مصر ٤ ج.	ليبيا
سوريا ٥٠ ل.س.	قطر ٦٠٠ ر.	المغرب ١٥ د.	اليمن
الأردن ١ د.	البحرين ٦٠٠ ف.	تونس ١٥ د.	السودان
الكويت ٥٠٠ ف.	السعودية ٧ ر.	عمان ٦٠٠ ب.	العراق

١ - الانكليزية الباردة

شدت راوينا قبضتها على المشتريات المتنوعة التي تحملها بين يديها وراحت تشق طريقها صعوداً على السلالم المفضية إلى شقتها. كان الانزعاج والعبوس باديين عليها بسبب تعطل المصعد مرة أخرى. وهذا ما لا تواجهه في مدينة عالمية كبروكسل التي هي مكان عملها حالياً، فلو حدث في بروكسل ما يحدث هنا الآن لسارع المسؤولون إلى حلها، وفي الواقع الخدمات التي تقدم هناك قد تصل إلى درجة الدلال، وكيف لا يكون ذلك بالخدمات إنما تقدم للنخبة الراقية من وزراء السوق المشتركة وسكرتيراتهم... وهيلين إحداهن.

ما إن بلغت باب شقتها حتى حلت البسمة مكان عبوسها، وقالت لنفسها وهي تفتش عن مفاتيحها «يا لي من محظوظة لأنني وجدت وظيفة كهذه، أجد فيها المتعة بدل الرتابة في بعض الأعمال... فالجهد للوصول إلى أعلى سلم العمل السكرتاري هو تحدٍّ مثير وليس بنزهة رتيبة كما يظنها بعضهم!». ترددت لحظة... فقد التقطت أذناها نغمًا مخنوقاً يأتي من خلف الباب المقفل. هناك من يدير أسطوانتها المفضلة. أوه... لا ليس هوارد ثانية.

فتحت الباب ودخلت بسرعة، ثم وضعت ما بين يديها من مشتريات في الردهة وأسرعت إلى غرفة الجلوس متسائلة.

- مرحباً... أختي!

لوح هوارد بيده متكاسلاً، ولكنه لم يحاول إزعاج جسده النحيل الممدد بالعرض على المقعد ذي الذراعين، وتابع تلويح ساقيه في الهواء مع النغم الموسيقي.

تقدمت لتطفئ جهاز الاسطوانات دون أن تزعج نفسها بالرد ثم استدارت بسرعة لتواجهه:

- لم أنت هنا هوارد... أعرف أنك تعمل في مكان ما في براري أسكتلندة؟

أطلق ضحكة مستهترة صغيرة ولكن نظرتها الثابتة التقطت عدم ارتياحه.

- تحسيناً لمعلوماتك الجغرافية قومي بجولة في الجزر البريطانية عوضاً عن التسكع في «مناطق غريبة». صحيح أن دمفري شاير في أقاصي الغابات ولكنها ليست في البراري الاسكتلندية الشمالية، بل هي على رمية حجر من الحدود الانكليزية.

ردت بجفاء:

- هلاً زدتنني وأخبرتني بما حصل لوظيفتك.

صعد سؤالها المركز الاحمرار إلى خديه فراح يمعن النظر فيها بشيء من الاضطراب، وكأنه يتساءل إلى أي مدى سيجرؤ على اختبار صبرها معه... فأخته غير الشقيقة رغم محبتها له بدأت مؤخراً تظهر له نفاذ صبرها منه بسبب تنقله الدائم من عمل لآخر. أخيراً قرّر تبني دور الولد الضائع الذي لم يفشل يوماً في كسب عطفها.

- بصراحة يا أختي، لم تكن وظيفة، بل هي سجن... فقد كان رب عملي السابق طاغية يحمل عقلية القرون الوسطى. عقلية أسلافه الذين كانوا يملكون الخدم والأتباع ويخضعونهم لإمرتهم وطاعتهم ممارسين عليهم السيطرة المطلقة الكاملة. المركز كالدونيان، إيرل روزمور، هو رجل كرية شرير يحجب نفسه عن المجتمع الحديث كما كان

أجداده يحمون أنفسهم من أعدائهم. فالخدم يقومون بدوريات على حدود أملاكه، لإبعاد الغرباء غير المرغوب فيهم. ومع أنه مجبر لأسباب اقتصادية، على فتح أبواب حصنه وأراضيه للعامة ولكن التواريخ والمواعيد تنفذ بدقة لئلا يكون هناك خطر أن يواجه العامة من الزائرين. أما حقوق موظفيه فهو يصرف النظر عنها بإشارة من إصبعه وأما أن يكون للموظف حياة خاصة، فهذا أمر بعيد المنال لا مجال للبحث فيه! فالموظف الذي يدخل عتبة داره ويصبح في عداد الساكنين فيه، حُكِم عليه بحياة العبودية يحاسبه الماركيز على أدق تحركاته، ويتوقع منه أن يكون ممتناً للهواء الذي يتنفسه تحت سقف إحسان السيد للمسود.

قالت راوينا محتجة لأنها تعرف مدى ميل شقيقها للمبالغة:

- ليس هناك من هو سيء إلى هذا الحد.

- ألا تصدقين قولي؟!!

حين هبّ واقفاً وعلى وجهه السخط، أحست أنها مجبرة على تصديقه لأن أخاها لا يستسلم عادة إلى نوبات غضب عفوية بل على العكس فطبيعته باردة خاملة إلى درجة كانت تتوق معها إلى هزّه غضباً. قال لها متهماً:

- أنت لم تصدقيني يوماً حتى ونحن صغار، كنت تميلين إلى تصديق أخصامي على تصديقي. وليتك تحكمين على الوقائع بنفسك... لو سافرت إلى اسكتلندة وسألت عن أملاك كالدونيان لقل لك ما قيل لي «أوه! إنك تسألين عن بيت الطاعون الأسود!».

حين انفجر غاضباً، غاصت في المقعد أمامها محاولة التفكير في الموقف... كانت فرحتها بالعودة إلى الوطن قد تلاشت بفعل قوله مع أنها منذ أشهر وهي تتطلع للعودة إلى شقتها التي أسستها بحب لتكون منزلاً لها ولأخيها الأصغر منها... لم يكن قد بلغ الخامسة عشرة حين

توفى الله والده ووالدتهما التي ماتت قبل زوجها بأشهر. أما هي فكانت في العشرين، فتاة متشبثة بأعتاب الحياة، في حوزتها شهادة سكرتاريا وفي قلبها توق للخطو إلى عالم العمل. يومذاك نصحتها زوج أمها: - لا تلمسكي بأول وظيفة تُعرض عليك. تمهلي وانظري إلى ما حولك ثم اختاري بحذر.

ولكن الظروف في النهاية حكمت أن يكون الراتب في طليعة اهتماماتها. فمع وجود أخ غير شقيق في الخامسة عشرة من عمره ومبلغ قليل من المال بل أقل من قليل كان قد ترك لهما، لم تستطع الانتظار لتختار.

أسندت رأسها إلى ظهر مقعدها، تنظر ببطء إلى ما يحيط بها. في غرفة الجلوس هذه أثاث كانت قد عمدت خلال سنوات إلى شرائه أما المقاعد البيضاء الباهتة الثلاث فمن الأشياء القليلة التي بقيت لها من منزلها القديم. وأما السجادة البنية، الطويلة الأهداب، المرقشة بلون عاجي، فكانت تبذيراً كبيراً، وتذكر أنها يوم اشترتها بالتقسيط لمدة سنتين شعرت بالذنب لأن زوج أمها وأخاها لم يوافقا على مبدأ التقسيط. ثم تدريجياً مع ازدياد راتبها، أضافت بعض اللوحات المختارة إلى جدران الشقة العادية، وهذه الستائر المخملية الفخمة إلى النوافذ، ومؤخراً، بعدما أصبح السفر إلى أوروبا جزءاً من عملها، اشترت قطعاً فخمة من البورسلان والزجاجيات، ومجموعة من أشياء غير عادية أعجبتها.

أجفلها صوت هوارد الذي انتشلها من أفكارها:

- آسف لأنني صرخت في وجهك أختي... أنا فظ أناني. أنت دون شك تعبئة بعد رحلتك. أتودين أن أحضر لك العجة وبعض السلطة؟ لن أتأخر أكثر من عشر دقائق.

إنها تسامحه دائماً كلما ابتسم لها ابتسامة تشجيع أو لوى رأسه

بهذه الطريقة:

- شكراً لك هوارد سيكون هذا رائعاً. فلنحضر الطعام معاً. سأحضر السلطة، أما أنت فتقلي البيض وبهذا نجد وقتاً لتتابع أخبارنا. كان كلما تحرك أحدهما في المطبخ الصغير دفع الآخر بمرفقه... ولكنهما كانا مسرورين لأنهما معاً مرة أخرى بعد ستة أشهر من الفراق. - كم ستمكثين هذه المرة؟

- ثلاثة أشهر، فلم يكن رب عملي السير دوغلاس على ما يرام مؤخراً، وقد نصحه الطبيب بأن يأخذ عطلة طويلة. كنت مستعدة للاستمرار في العمل عوضاً عنه حتى يعود، ولكنه واللايدي ليستر، رأيا أنني بحاجة إلى الراحة بمقدار حاجتهما إليها. ويجب أن أعترف أنني لم أجادلهما في هذا... فلقد كانت حياتنا مرهقة في الأشهر الماضية، فقد تركت ألاليدي ليستر منزلها لتهتم ببعض الشؤون العائلية فاضطرت لتمثيل دور المضيف في مناسبات اجتماعية عديدة كان من العسير إلغاؤها. فما رأيك بالعمل المضني طوال النهار ثم الاهتمام بالجانب الاجتماعي حتى ساعات الصباح الأولى، كنت أشعر بالإعياء التام لذا تطلعت شوقاً إلى الراحة والاسترخاء في شقتنا، ورغبت في زيارة الأصدقاء، والإخلاد إلى النوم قبل العاشرة كل ليلة. نظر إليها بقرف:

- يا إلهي... ما هذه الطريقة لقضاء عطلة! هذا البرنامج الذي ذكرته يدفعني إلى الجنون!

- أجل... أعرف هذا عزيزي... ولكن وجهات نظرنا لم تكن يوماً واحدة! فأنا أعتبر التسكع عملاً كريهاً أما أنت فينعشك وكذا الحال بالنسبة للعمل، ففيما أجد المتعة فيه تجده أنت شراً لا بد منه. هز رأسه موافقاً:

- أنت على حق. لكل منا طريقة مختلفة في التفكير والتصرف

أيضاً بل نحن أيضاً غير متشابهين ، وهذا ليس عجيباً لأن كل منا من أب مختلف .

توقفت عن تقطيع الخس ، وتغضن جبينها عبوساً :

- كنت أذكر نفسي دائماً بهذا الواقع . لقد ترمّلت أُمي وهي صغيرة جداً ، ولم أكن سوى طفلة حين تزوجت مرة أخرى ، وكان والدك هو الأب الوحيد الذي عرفته . كنت في الخامسة من عمري عندما ولدت أنت . . . أذكر يومذاك أن «دادي» فرح كثيراً وقد رماني في الهواء إلى أن صرخت طلباً للرحمة ، ومع ذلك لم يظهر يوماً في تلك السنوات ما يدل على أنه يفضل أحدنا على الآخر . كان يقسم كل شيء بيننا بالتساوي : حبه ، وتفهمه . . . و . . .

قاطعها هوارد والمرارة في صوته تكبح ما تبقى من كلامها .

- كل شيء عدا ماله . لا تنكري أنه كان لك علي أفضلية فقد ألحقك بمدرسة خاصة ولم يكتف بذلك ، بل أصرَّ «دادي» أن تدرسي دروساً خاصة في السكرتاريا . . . أما أنا فحرمت من أصدقائي الذين ترعرعت معهم ووضعت في مدرسة رسمية كنت فيها غريباً عن الأساتذة والتلاميذ في آن . لقد خرجت من المدارس الخاصة وما فيها من أساتذة أكفاء وزججت في مدارس يزيد عدد التلاميذ في الصف الواحد على الثلاثين تلميذاً والمميز فيها أن التلاميذ لم يكن لديهم الرغبة أو القدرة على التعلم أما الأساتذة فكانوا يكافحون أوضاعاً شاذة لا تقهر للاحتفاظ بعملهم .

بقيت راوينا صامتة جامدة بحيث ظهرت صورة متكاملة للتحفظ ، ثم قالت بصوت أجش :

- أعرف أنك تكدرت كثيراً حين تركت المدرسة الخاصة . لكنني لم أكن أعرف أبداً مدى تأثر . . . إنما لا تلم «دادي» على ذلك فهو لم يمت بإرادته واختياره .

رد بقسوة :

- ولم يختر كذلك أن يوفر احتياطات وقائية لعائلته . كان أناثياً حين رتب شؤونه بحيث نستريح في حياته ونشقى في مماته ، ألا تظنين هذا؟

همست ببؤس :

- لم يكن يعتقد بل على الأرجح لم يفكر في أنه سيموت صغير السن كما فعل .

- ربما لا . . . لكنني كنت أفكر أثناء تنقلي من عمل لآخر في ذلك ، وليس غريباً أن أفكر فيه وأنا أرى نفسي غير قادر على تحقيق ترقية لأنني لا أملك مؤهلات أو علاقات مدرسية أو غير مدرسية مهمة لها تأثيرها في الوصول إلى وظائف هامة في المدينة .

- المقدرة والتصميم يتغلبان على كل العوائق . . . كان يمكن أن أجلس نادبة حظي لاعة قدرتي السيء وأقضي ما تبقى من حياتي في العمل في أول وظيفة مملة . لكنني التحقت بمدرسة ليلية حتى أتقنت ثلاث لغات ثم تركت أذنيّ مشنفتين وعينيّ مفتوحتين حتى عثرت أخيراً على وظيفة عظيمة . . . إن كان الرجل ماهراً في عمله فلا همّ ما لون ربطه عنقه؟

- من السهل أن تجد المرأة في هذه الأيام وظيفة أما الرجل فيعسر عليه ذلك إذ عليه أن يعاشر غير رفاق السوء ، كما عليه أن يكون مقبولاً في دوائر خاصة . ولا يهم إطلاقاً إن كان له عقل أو قدرة أو تصميم بل المهم أن يدعمه أشخاص من ذوي القيمة وهذا يذكرني بخدمة أريدها منك . ولكن فلنحمل أولاً هذا الطعام إلى المائدة ، ولنتحدث أثناء الوجبة .

أحست راوينا أن السلطة اللذيذة والأومليت الشهية ستصدمها ، فأخذت تتلاعب بها بالشوكة والسكين ، تفكر وجلة في ما سيطلبه منها

فبسبب تلميحات سابقة، استطاعت أن تقدّر موضوع الطلب المقبل، وخشيت من عواقب رفضها، الذي يتشكّل منذ الآن في رأسها. كانت شهية هوارد عظيمة وهذا غريب بالنسبة لشخص نحيل مثله. سألتها فجأة:

- هل حملت معك هدايا من بروكسل لم تخضع لرقابة الجمارك؟
- أجل... بعض العطور وعلب السيكار. تركتها في الردهة... أخبرني المزيد عن رب عملك الأخير... عن عائلته... هل زوجته خاضعة له وهل أولاده بلا شخصية؟
رد بازدراء:

- كان يمكن أن يكونوا كذلك لو كان له زوجة وأولاد. إنه يعيش حياة النساك داخل حصنه الحجري المنيع مع قبيلة من المحليين الذين يقومون على تأمين احتياجاته واحتياجات الصبي.
- الصبي...؟

- طفل في الخامسة من عمره هو ابن أخيه، على ما أعتقد. أخيه الأصغر، سايتون الأحمر.
ظنت أنه يسخر منها فزجرته:

- لا تمزح هواردا! أنا حقاً مهتمة بمعرفة أخباره.
- صدقيني أختاه... يجب أن تختبري ذاك الوضع الإقطاعي لتصدقني! هناك حقاً سايتون الأسود وسائتون الأحمر... يقول السكان هناك إن هذين الأخوين يظهران من وقت إلى آخر في العائلة، الأكبر دائماً هو الأسود، ويكون أسمر اللون أسود الشعر، ويطلق عليه «الطاعون الأسود» أما الثاني فيكون إما أشقر أو أحمر الشعر ولكنني لم أر قط الأخ الأصغر الذي يُقال إنه منبوذ لا يملك مالاً ويحاول رمي سبب تعرّضه على أخيه الأكبر... لكن كفى كلاماً عن عائلة سايتون وما ورثوه من ألقاب عديدة. لقد قطعت كل صلة لي بتلك العائلة،

وسأكون سعيداً إن لم تقع عيناى ثانية على سايتون الأسود.
- حسناً، فلنتناول القهوة في غرفة الجلوس، ولا تزعج نفسك بتنظيف الصحون فسأنظفها لاحقاً.

لم يطرق هوارد الموضوع الذي شغل رأس أخته طوال الوقت، إلا بعد أن تمدد في مقعد مريح، وأشعل سيكاراً من أحد العلب التي جلبتها معها. وعندما سأل كان سؤاله أشبه بالعفوي:
- أيمكنك استخدام نفوذك لدى السير دوغلاس ليستر من أجلني؟ أعلم أنه في الوقت الحاضر مشغول بشؤون السوق المشتركة، ولكنه مدير عدة شركات وأحسبه إن طلبت منه بلطف سيؤمن لي وظيفة ما في مكان ما.

هذا تماماً ما توقعت، وعلى أساس هذا ربت مناقشتها معه... فقالت بلطف لثلاث تجرح مشاعره:

- آسفة هوارد، لقد ناقشنا هذا الأمر سابقاً. والجواب ما زال «لا» وكما قلت لك سابقاً، أكره أن أفرض نفسي على رب عملي.
مال إلى الأمام بغية المزيد من التأثير:

- لا تطلبي منه ذلك كسكرتيرة بل كصديقة، إنه يقدرك كثيراً وقد اعترف أكثر من مرة باعتماده الكامل عليك. بل سمعته مرة يتغنى بمدحك أمام زميل له قائلاً: «تملك راوينا مقدرة فائقة وإخلاصاً لا شك فيه، وهذا في بعض النساء مخيف ولكنها تقوم بهذا بكل سحر الأنثى».

ارتفع ذقنها الصغير بعناد، ولمعت عيناها العنبريتان:
- وماذا...؟ أتقول إن عليّ الضغط عليه ليجد لك عملاً؟
بلغ سخطه حدّاً كبيراً دفعه إلى إطفاء السيكار بغضب:
- لا تكوني سخيفة! لا أطلب منك إلا أن تلمحي له تلميحاً.
استخدمني سحرك وأنوئتك، ابكي قليلاً على كتفه وصبي متاعبك

وقلقتك من شقيقك الأصغر الذي يملك مواهب كثيرة ويحتاج إلى من يساعده في ارتقاء أولى درجات السلم. لا أطلب منك إلا فرصة.. فرصة واحدة أختاه!

هبت على قدميها واقفة وراحت تذرع الغرفة في محاولة لتنفيس الغضب الذي بدأ يتعقد في داخلها... وما هي إلا لحظات حتى ارتدت على عقبها نحوه مهاجمة:

- أنت لا تعرفني إن ظننت أنني قد أغوص إلى هذا الدرك، فرب عملي يضع في أولويات مقدرتي ومواهي، قدرتي على مواجهة المشاكل ببرود وهدوء وتعقل. فكيف ستكون ردة فعله، لو انهرت فجأة على كتفه وسالت دموعي؟ استخدم خيالك هواردا! لن أبدو حمقاء أمامه فقط، بل سيحسُّ السير دوغلاس بالإحراج!

تقدم إليها ليقف غير بعيد عنها بحيث يتسنى له أن يمعن النظر في وجهها المضطرب. كان الشبه الخارجي بينهما وهما يقفان معاً ضمن دائرة ضوء المصباح المعلق فوق رأسيهما، ظاهراً. فلكل منهما شعر أشقر فضي وجسد نحيل ولكن فيما كان فمه رقيقاً، كان فمها مكتنزاً يدل بأدل طريقة على التصميم الذي ينعكس أيضاً في عينيها العنبريتان اللامعتين لمعان الكهرمان وهما تتصادمان مع عينيهِ الزرقاوين الشاحبتين. قال بعد صمت، وكأنه يتهمها:

- لن يكون أبداً كالخرج الذي يصيبي وأنا أقف في نهاية صف طويل ممل! أنت قاسية أنانية راوينا... فكل ما كنت تريدونه وقع بين يديك مباشرة: وظيفة مهمة وسفر إلى الخارج وراتب جيد يخولك الحفاظ على هذه الشقة التي سمحت لي شهامتك بمشاركتك إياها... يا لك من محظوظة! محظوظة جداً أنت يا أختي.

- وكلما عملت ازداد حظي وعظم.

قاطع سخريتها بحدة:

- وفري عليّ سماع هذا! لو كان وضعنا معكوساً وكنت أنا من جنى فوائد التعليم الكثير الكلفة، لما جعلتك تتوسلين فتات مائدتني! لو أن لي وظيفة محترمة لاستطعت أن أحصل على شقة لنفسني، ولكان في جيبي مال. وها أنا بدأت أشك أنك تفضلين أن أبقى كما أنا معتمداً كل الاعتماد على إحسانك. أتشعرين والحال هذا بالتفاخر؟ هل أنت واحدة من النساء المكبوتات المحتاجات إلى الشعور بأن الآخرين بحاجة إليهم ليرضين غرائز الأمومة المحبطة؟ أنت جميلة يا أختي... أعترف لك بهذا. ومع ذلك، لم أرَ لك صديقاً دائماً ولم أشهد لك علاقة أقمتها... فهل أخبرك السبب؟ إن برودتك ورفعة منزلتك اللتين تظهرينهما هما ما تصدان الرجال... ويجب أن تخلصي نفسك منهما. أما أنا فلست مستعداً لانتظار وقوع الأعاجيب. سأقطع الرباط الذي يربطني بميدعتك ومثزرك. أريد حرיתי. أريدها الآن...! صدقيني... وعليك لصالحك أن تساعدني في الحصول عليها!

استعادت هدوءها ظاهرياً وكان الذنب الذي يشعر به يجعله متوتراً.
ولكن البسمة أضاءت عبوس وجهه حالما قالت له بصوت متزن
خفيض:

- قررت أن أفعل ما طلبته مني... سأتصل بالسير دوغلاس لأسأله
إن كان قادراً على إعطائي بضع دقائق من وقته قبل سفره إلى منزله
الريفي.

- هذه أنباء رائعة يا أختي!

تحرك نحوها، لكنها تجنببت عناقه وذكّرت في الوقت ذاته ببرود:
- لكنني سأقوم بذلك بدون قناعة لذا أريد وعداً منك، وعد شرف،
أن تبذل جهدك للنجاح في العمل الذي قد أنجح في تأمينه لك بمساعدة
السير دوغلاس... فليس مستقبلك وحده في خطر، بل مستقبلي أنا.
فإن فشلت بعد توصيتي بك فلن أستطيع الاستمرار في العمل لأنه عندها
لن يراني أهلاً للأحكام الصائبة.

- أعدك أختاه... لا داعي للخوف من هذا. فلا أحتاج إلا لبداية
حقيقية تخولني الانطلاق، وسأثبت لك أنك لست الوحيدة في العائلة
من يستطيع الوصول إلى القمة!

رد السير دوغلاس بنفسه حين اتصلت بمنزله:

- راوينا عزيزتي... بالطبع سأقابلك... فوراً إذا استطعت. وينفرد
تقول إن عليها توضيب الحقائق وهذا يعني أن أمامي ساعتين قبل
السفر.

تلعثمت راوينا وهي تشكره ولكن بعدما أقفلت السماعة أسرع
تطلب سيارة أجرة. وما هي إلا ربع ساعة حتى كانت أمام منزل السير
دوغلاس اللندني الأنيق، وما هي إلا لحظات أخرى حتى كانت تدخل
مكتبه حيث كان ينتظرها... ألقي عليها نظرة حادة حاذقة تشير إلى أنه
فهم أن سكرتيرته الهادئة عادة، في حالة عصبية مجهدة... ولكنه لم

٢ - الطاعون الأسود

لم يغمض لراوينا تلك الليلة جفن لأن تبدل تصرفات هوارد نكاً
جرحاً مؤلماً عليها أن تعين خطورته. فالنجاح كما اكتشفت في بداية
حياتها المهنية ليس السبيل الأفضل للصدقة، بل الكراهية والضعف،
والخبث وتعتمد الأذى هي الثمن الذي يجب أن يدفع المرء لمجرد
الجرأة على الحلم، فما بالك بتسلق القمة. إن الصداقة عند راوينا تعني
الالتزام التام والإخلاص الصرف والمشاركة بالفرح في السراء
والإحساس بالشفقة العميقة في الضراء ولكنها وجدت الصداقة في
مفهوم الآخرين مختلفة.

كانت سهام الغيرة قد تركت آثارها في مشاعرها الرقيقة حتى
تراجعت في النهاية إلى قوقعة من عدم الاهتمام المنعزل... إنها تضع
ثقتها في شخص واحد تعلم حقاً أنه يهتم بها: هوارد. ولكنه هو أيضاً
خان ثقتها به... إن غريزتها دفعته للتخفي وراء واجهة باردة من
اللامبالاة أثناء حوارهما، أما الآن وهي في عزلة غرفتها فقد أطلقت
العنان لدموعها الحارقة وكان أن هزّت التشنجات جسدها النحيل
المتمدد فوق الفراش وراحت تفرق في موجات متلاحقة من الذهول
والارتباك، تحس أنها خائفة، مهجورة وأنها قطعة من حطام بشري
يتلاطم على الصخور بلا مرساة.

حين انضمت في الصباح إلى هوارد لتناول الفطور، كانت قد

يشر إلى هذا، بل تريث حتى جلست وقال لخادمه:

- أحضر لنا القهوة والبسكويت، أرجوك روبرت.

لوح بيده رافضاً احتجاجها، وترك الحديث يدور بينهما حتى عاد الخادم وبعد ذلك استقر في مقعده وقال يحثها:

- ما الأمر يا ابنتي... هناك ما يقلقك...؟

ارتشفت جرعة من القهوة، ثم وضعت فنجانها على طاولة قريبة فعاودت تغطية عصبيتها بصوت مبالغ في مرحة، رنّ مزيفاً في أذنيه، فبدأت بالاعتذار:

- أحسن أن وجودي هنا عبء ثقيل سير دوغلاس. لقد كنت لطيفاً معي دائماً في الماضي وكريماً ومتفهماً أيضاً وأحسُّ بالخجل لأنني سأقدم على طلب معروف منك.

مال إلى الأمام يشجعها:

- لم تتلقي مني شيئاً لا تستحقينه، أنت تسيئين تقدير قيمتك لدي... الغبي وحده لا يكافئ موظفة قديرة كفؤة مساعدة مثلك... فلو لا أخلاقك الجميلة... واستعدادك لتحمل المسؤوليات إلى أبعد مما هو متوقع من سكرتيرة، لوجدت الأشهر الستة الماضية عبئاً لا يطاق يا عزيزتي، أنا مدين لك بالكثير، لذا سيكون مطلق طلب تطلبيته سبيلاً لأقدم لك مساهمة صغيرة تخفف من عبء ما أكنُّ لك من امتنان.

طفرت الدموع إلى عينيها ولكنها كبعتها بسرعة ووجدت نفسها غير قادرة على الكلام أما السير دوغلاس فشغل نفسه بملء فنجانه ثانية ولكن فضوله أثاره قلق الفتاة التي شاركته علاقة الرئيس بالمرؤوس ومع ذلك بقيت بالنسبة له لغزاً مغلقاً.

في البداية تردد في قبول اقتراح زوجته القاضي بأن يطلب من راوينا القيام بمهام المضيضة أثناء غيابها فقد تعلم خلال سنوات عمله الطويلة أن من الحكمة إبقاء كل الموظفين على مسافة من الصداقة.

ففي الماضي أساء الكثيرون ممن منحهم بعض الصداقة إليه ولكنه اكتشف أن الأمر مع راوينا هو العكس فهي التي تركت حواجز التحفظ بينهما، وملأت الفراغ الذي خلفته زوجته، واكتسبت التقدير من ضيوفه الأثرياء بسبب الطريقة التي لبّت فيها حاجاتهم. ومع ذلك، وعلى الرغم من اعتماده هذا عليها، لم تتخط الحد بالتطفل على علاقاتهم وأعمالهم.

عندما بدأت تجبر نفسها تدريجياً على الكلام، كان اهتمامه قد زاد... قالت مترددة:

- لا أدري إذا كنت تذكر أن لي أخاً نصف شقيق هو أصغر مني.

هز رأسه نافذ الصبر لتتم كلامها، وقال معلقاً:

- كان في الخامسة عشرة حين مات أبواكما. أليس كذلك؟ ومنذ ذلك الحين وضعت على عاتقك مسؤوليته.

ابتلعت ريقها بصعوبة:

- أجل... ولكن لسوء الحظ، لم أنجح في حمل مسؤولياتي. فمع أنه يملك عقلاً راجحاً كان تعليمه قليلاً. ظل أخي حتى مات والده في مدرسة خاصة ولكن بعد وفاة والده لم أجد إلا راتبي وبما أنه لم يكن يستطيع تغطية نفقات المدرسة الخاصة، اضطررت للاعتماد على التعلم الرسمي. وبالطبع هزّه هذا الانتقال وهو حتى الآن على الرغم من بلوغه العشرين عاماً ما زال يشعر بالإحباط والسخط غير أنه مقتنع بأن له القدرة على النجاح لو حصل على فرصته لإثبات نفسه للآخرين.

بدأ السير دوغلاس يرى الصورة، فتهد بارتياح:

- يا فتاتي العزيزة... هل المعروف الذي تطلبيته هو حقاً هذا الأمر الصغير، في أن أجد عملاً لأخيك؟

اتسعت عيناها العنبريتان ولأول مرة منذ بدأت تتكلم، رفعت رأسها تسأله باضطراب:

- أمر صغير؟ سير دوغلاس . . ليس لديك فكرة عما يعنيه له هذا الأمر بل عما يعنيه لكلينا!

- إذن، يجب أن نرى ما نستطيع عمله . قلت إنه في العشرين؟ فيم برع؟

- برع دائماً بالأرقام .

- وأين عمل آخر مرة وفي أي مجال؟

بدت عليه الحيرة عندما رأى الاحمرار الذي اجتاح وجنتيها .

- عمل آخر مرة عند الماركيز كالدونيان . . كان مساعد مدير الأملاك .

ارتفع رأس السير دوغلاس بحدة :

- ماركيز أوف كالدونيان؟ هذا بحد ذاته توصية كافية . سكوت صديق قديم .

- سكوت؟ لا . . أظن أن اسمه سايتون .

- صحيح يا عزيزتي إنه سكوت سايتون . . وعائلة سايتون من أقدم العائلات بين قبائل اسكتلندة . عندما ورث القصر والأملاك كان كل شيء على وشك الإفلاس . نعم لا أنكر أنه كان هناك إرث عيني كبير، إلا أن سكوت أصرَّ على الاحتفاظ به . . وهذا ما كان . قصر كالدونيان ليس فقط أحد أكثر القلاع التاريخية جاذبية، بل هو الآن جزء من أملاك تعتبر عالمياً مثلاً على الديناميكية في الإدارة . وقد تبين لحسن الحظ أن سكوت زراعي قديم يميل إلى تطوير العمل . ولقد قام بمشروع طموح يقتضي إعادة تشجير منطقة الغابات، وتحديث المزارع، ومشكور على ما قام بفضله أضحت أملاك كالدونيان أملاك زراعية مزدهرة . لا شك في أن أخاك أخبرك بذلك، فما من أحد عمل مع سكوت إلا واضطر إلى الإعجاب بشجاعة هذا الرجل وتصميمه .

كان في كلام السير دوغلاس علامة استفهام، ولكنها قررت

تجاهلها . فلن تتمكن من الاعتراف بأن هوارد قد أساء وصف رب عمله السابق . . والأمر محير . . وظلت على حيرتها حتى تذكرت أن السير دوغلاس ينظر إلى الماركيز من زاوية رب العمل لا من زاوية الموظف وهذا يعني أنه لا يعرف شيئاً عن تصرفات هذا الماركيز مع من يعملون عنده من سيئي الحظ!

جلس السير دوغلاس وراء مكتبه :

- والآن إلى العمل! قل لي لأخيك أن يحمل هذه الرسالة إلى مؤسسة محاسبة سادون اسمها وعنوانها على الغلاف . آسف لأنني لن أتمكن من الحضور ولكن لا تخافي سأكتب في الرسالة توصية لرئيس المحاسبين وهي ستكون سبباً ليتلقى أفضل معاملة . لقد أعلن عن الوظيفة، لذلك سيواجه منافسة، طبعاً . . إنما قرار رئيس المحاسبة سيكون النهائي . إن قدم أخوك الانطباع الحسن ساعده هذا الكتاب وأعطاه خطوة لنيل الوظيفة .

ردت بصوت مرتجف، وقد بدأ السير دوغلاس بالكتابة :

- شكراً لك سير دوغلاس . . إنه . . بل إننا مدينان لك .

- هراء ما تقولينه يا عزيزتي، فإن كان يملك نصف ما تملكين من مزايا فسيكون كسباً لأية مؤسسة .

أعطاه الرسالة، فالتقطت حقيبتها بسرعة لئلا تؤخره أكثر من هذا . ولكنه عندما كان يرافقها نحو الباب سألها، وكأنه يفكر :

- بالمناسبة هل ستمكثين في لندن طوال إجازتك؟

- أجل . . أتصور هذا . . فليس لدي خطط محددة .

قطب قليلاً :

- المسألة كل المسألة أنني أريد معرفة مكانك فيما إذا جدَّ شيء عاجل . لدي عنوانك، ولكن إن قررت الابتعاد فاتركي عنوانك مع روبرت احتياطاً .

ابتسمت: «سأفعل طبعاً».

استدارت تصافحه قبل أن تخرج من منزله قائلة:

- لكن أرجو ألا يحصل هذا... فأنت واللايدي ليستر بحاجة إلى إجازة بعيداً عن أية مقاطعة.

- وأنت كذلك عزيزتي... وأنت كذلك.

لم تكد تستطيع الانتظار حتى العودة إلى هوارد... كانت تمسك بالغلاف في يدها وكأنها تخشى أن تفقده إن وضعت في حقيبة يدها وعندما وصلت أمام منزلها ركضت ترتقي الأدراج ثم دخلت إلى الشقة كالعاصفة. كان هوارد يجلس ساهماً يحدق إلى خارج النافذة ولكن حين ظهرت تلوح بالرسالة تحت أنفه وكأنها علم الانتصار، هبَّ على قدميه واقفاً وعلى وجهه مزيج من التوقع وعدم التصديق. حين قرأ العنوان على المغلف، عاد ليغرق في مقعده مصدوماً لا يستطيع الكلام. فقالت تحته:

- حسناً... هل لاقت المؤسسة إعجابك؟

- لاقت إعجابي؟ السؤال يجب أن يكون ما إذا كنت أنا سألاقي إعجابهم! إنها أكبر مؤسسة محترمة في المدينة.

ضحكت على تعبيره الوجلي، وقالت مازحة:

- أليس هذا ما كنت تطلبه؟

- طبعاً... ولكن هذه المؤسسة تطلب مواصفات عالية في موظفيها يا أختي! ماذا إن فشلت؟

جلست تواجهه وقد تجهم وجهها فجأة:

- سيكون لك المساعدة والتشجيع فهذا ما أكدته السير دوغلاس لي. وستبدأ من الأسفل، طبعاً. لكن إن كان عملك مرضياً فلن يكون هناك حدود لما ستصل إليه من مركز. عدني أرجوك بالمحافظة على الوظيفة وابدل جهدك من أجلي وأجلك. هه؟

لم تشك في صدقه حين وعد، بصدق الأطفال:

- لا تخشي شيئاً أختاه... هذه فرصتي الكبرى، أعدك أنني لن أفسدها.

أمضيا نهاية أسبوع سعيدة ولكنهما كانا قلقين يحاولان بثني الطرق ملء الفراغ القائم بين الجمعة وصباح الاثنين. في هذه الأثناء أصرت راوينا على قضاء الوقت بسعادة بعيداً عما قد يعكر صفو هذه السعادة فكان أن قبلت اقتراح هوارد بالاحتفال بتلك الأمسية والقيام بجولة على أماكن لم يراها منذ الطفولة. أما يوم الأحد فقاما برحلة إلى برايتون لزيارة أصدقاء ظلّا عندهم حتى منتصف الليل.

عندما عادا إلى الشقة قبلها هوارد على جفنيها المثقلين بالنعاس:

- تصبحين على خير... أختي! ما زال أمامي تسع ساعات لاكتشف مصيري! اذهبي إلى النوم... ولكن اضطرابي سيمنعني من النوم لذا سأقرأ قليلاً.

كانت متعبة ولكن سعيدة، فتوجهت إلى غرفة نومها غير أنها التفتت إليه تحتج:

- هوارد، يجب أن تستريح. سيكون المسؤولون في المؤسسة انطباعهم الأولي عنك غداً ولا أريد أن تقوم بالمقابلة والدوائر السوداء حول عينيك...

- بل سأكون متفجراً حماسة. صدقاً، أنا منفعل انفعالاً كبيراً سيمنعني من النوم... أريد فقط أن أجلس بهدوء لأتذوق طعم الفرصة المشيرة... فالنجاح لا يبعد عني سوى ساعات! ومن اليوم فصاعداً ستتخذ حياتي منحني جديداً يدفعني إلى القمة.

أحست راوينا بشيء من الفخر، حين انطلق في الصباح التالي إلى مواعده. وعلى الرغم من قلة الساعات التي نام فيها بدا مشرقاً يقظاً لامع العينين. كانت بذلته المكوية تستقر على جسده النحيل الذي يجعل من

أرخص الثياب أنيقة. إذا كان المظهر وحده هو المقياس فسيحصل على الوظيفة دون عون السير دوغلاس. . . وقفت تراقبه من النافذة وهو يستقل التاكسي الذي سرعان ما ابتعد عند المنعطف. كانت أناملها بطريقة لا شعورية تتقاطع برجاء وقد ظلت على هذه الحال حتى عاد بعد ساعة. لم تدرك أنها ما تزال واقفة حيث هي متوترة منتظرة حتى سمعت مفتاحه يدور في قفل الباب.

صاحت بصوت حاد:

- حسناً؟ كيف تم الأمر؟

تقدم منها، فلاحظت أن الكثير من الحيوية هجرت خطواته.

- جيدة. . . إلى حد ما.

- لكن. . . ؟

جلس في مقعد قبل أن يرد:

- إنهم يطلبون كتاب توصية من رب عملي السابق.

تنفست الصعداء، وتقدمت منه تشجعه:

- هذه ليست مشكلة بالتأكيد. فإن كنت قد أدت عملك بشكل

مرضي، فلا شك أن المركز سيذكر ذلك في توصيته. ما من رجل يترك الأمور الخاصة تسيء إلى مستقبل رجل آخر. ومن المستحيل أن يكتب توصية تحط من قدرك لمجرد عدم اتفاقكما.

رد ساخراً، وعيناه تعكسان الخوف الصرف:

- ألن يفعل. . . ؟ سنعرف قريباً، فسراسله رئيس المحاسبين

الليلة.

بعد مرور أسبوع بدا أنه لن ينتهي، وصلت الرسالة. رسالة

قصيرة، رسمية تشكر لهوارد تقدمه للعمل، مرفقة بأسف لأن المركز لم يعد شاغراً.

كانت راوينا في الخارج تتسوق حين وصل البريد وعندما عادت

وجدت الشقة خاوية، والرسالة مرمية على السجادة بازدراء. التقطتها وقرأت الجمل المهدبة ثلاث مرات قبل أن تستوعبها تماماً. كان شعورها الأولي الشفقة الخالصة على هوارد. . . ثم الخوف. . . فهو في الوقت الحالي يتأرجح على الخط الرفيع الذي يفصل بين الاستقرار وعدم النضوج. . . وهذا الإحباط يدفعه إلى سلوك السبيل الخطأ وقد يرسل طبيعته السريعة التأثير للتأرجح فوق سلك مرتفع.

بدأت داخلياً تميز غيظاً. حدثت إلى الورقة المطبوعة على الآلة الكاتبة، فترأت لها الفسحات البيضاء بين الأسطر، يد سايتون الأسود أو من يطلق عليه القرويون «الطاعون الأسود». . . إن نفوذه وحده قادر على التغلب على نفوذ السير دوغلاس. . . وهو بكل تأكيد كتب اتهاماً مشيناً بحق موظفه السابق. . . إنه كما قال هوارد، طاغية دون رحمة، مجنون سلطة، لا يتردد في تمزيق نسيج حياة رجل شاب لمجرد إشباع ضغينته الحقيمة.

بعد ساعة، وصل هوارد إلى البيت ولكنها سمعت صوته العاصف، يدعو شخصاً للدخول:

- ادخل يا توبي. . . لن أتأخر في توضيب ثيابي أكثر من دقيقة.

غاص قلبها. . . توبي كولنز هو من القلائل الذين عاد هوارد إلى مصاحبتهم بعد فراقه عنهم في المدرسة الخاصة، وهو شخص لا شخصية له، مدلل غني، لكن لا أصدقاء له يعرفه معهم. وكانت قد اعتقدت أن هوارد تخلى عن صداقته منذ أمد طويل.

تحققت أسوأ مخاوفها حين دخلا معاً إلى غرفة الجلوس ووقفوا أمامها، تجتاح وجهيهما ابتسامة بلهاء. فبادرت أخيها بازدراء:

- أكنت تتسكع معه!

- صحيح تماماً. . . أختي الكبيرة والسبب وجيه جداً. اطمئني لا حاجة بك بعد الآن إلى دس أنفك الأنيق في شؤوني فأنا راحل. . . !

شهقت:

- راحل؟ لكن إلى أين؟

رمى ذراعاً على كتفي توبي:

- في عطلة مع صديق قديم طيب... هذا... في جولة طويلة متطفلة إلى أوروبا... لذلك لن أستطيع أن أقول لك إلى أين... أو متى سأعود.

- لا هوارد... يجب ألا تفعل هذا! سأدبر عملاً آخر... فرصاً أخرى.

نحأها جانباً، وتقدم إلى غرفته، وبدأ يرمي أغراضه كيفما كان في حقيبة. فقال له توبي، وهو يتكىء إلى جانب الباب:

- لن تحتاج إلى الكثير يا بني. بنطلون جينز وبضع قمصان تكفي. راحت راوينا مذعورة تتوسل هوارد حتى يبقى ولكنه أدار أذناً صماء إلى كلامها ونصائحها بالابتعاد عن الذهاب لثلا يقع في ورطة كبيرة فيجد نفسه دون مال يحمله إلى بلاده ولكنه قال لها بعناد قبل أن يخرج:

- لدى توبي من المال القذر ما يكفيننا.

ثم أردف بصوت قاس:

- ابتعدي عن طريقي يا أختي... فأنا ذاهب... من يعلم ربما إلى الأبد. لقد سئمت حتى الموت من هذه البلاد اللعينة وروابط الوراثة الضيقة، والمجتمع المعادي الذي ما إن تزعج أحدهم فيه حتى ينزعج الآخرون... ولقد انتقم مني ذلك «الطاعون الأسود» ولن أتمكن من الحصول على وظيفة لائقة في نطاق نفوذه. لذلك يستحسن أن أسافر... وداعاً أختاه... سأراسلك.

بعد ساعات من البكاء راحت تعيد ترتيب أدراج خزانته فوجدت الصحيفة التي لا بد أنه دسها بين أغراضه حين غادر اسكتلندة. كان

عمرها ما لا يقل عن أسبوعين، مليئة بالأخبار المحلية وبمقالات زراعية، وإعلانات مبوبة كان أحدها مميزاً لأنه كان مربعاً بارزاً يضع كلمات جافة متسلطة كالرجل الذي طلب نشرها:

«مطلوب سكرتيرة للعمل في أملاك ريفية نائية ليس فيها أضواء أو تسلية أبداً. مطلوب من الكفوآت التقدم للعمل على أن تتم المراسلة على العنوان التالي: قصر كالدونيان دمفري شاير.»

أعادت القراءة مرات ومرات حتى استوعبت الرسالة. وعندها هدأت مشاعرها المنفعلة المتقدة وراحت تلحّ عليها شوقاً للانتقام...

٣ - أسنان اللورد

لم يكن من الصعب إيجاد قصر كالدونيان . . فما إن قطعت راوينا الحدود في سيارة هوارد التي هجرها، حتى وجدت نفسها فعلاً في بلد آخر . . فقد مرت نصف ساعة وهي تقود السيارة على أرض زراعية خصبة مترامية الأطراف يسرح فيها النظر إلى اللانهاية حيث المناظر الرائعة والحقول الخضراء المتصلة بحواجز من الشجيرات الشائكة الشديدة الاخضرار . . كان الريف هادئاً كله تلال جميلة، تتخللها سواق وأراض زراعية وتبتعد عنها جبال مرتفعة مكسوة بالخلنج .

كانت تمر أحياناً بمخازن غلال مهجورة، ومرت مرة بقلعة مهدمة هيكليها الفارغ يتطاول شامخاً بفخر نحو السماء وخطوطه المتعرجة القاسية تذكرها أن هذه الأرض كانت أرض نزاع، أرضاً عانت قروناً من صليل الفولاذ وهو يقارع الفولاذ ومن وقع حوافر الجياد التي كانت تحمل الفرسان الانكليز إلى عمق المناطق الاسكتلندية التي كانت تتعالى فيها صيحات العشائر الحادة ونحيب الأمهات اللاتي كن يحدقن إلى بناتهن الشابات النيبلات وهن تُنتزعن من أحضانهن لتوضعن وراء ظهور فرسان كانوا ينقلونهن بعيداً بحيث لا يريهن ثانية . . . كانت أرضاً عانت الكثير ففيها كان يصطف الرجال من الآباء وأبناء العم والإخوة صامتين مصممين وجوههم كالحة محفورة عميقاً بالمرارة يختفون تحت جناح الليل ثم يظهرون ثانية من بعيد وكأنهم صور

يعكسها خط الأفق قبل أن تبتلعهم التلال . إنهم رجال قلوبهم سوداء كانت تحمل الانتقام الذي كان يغذيهم بشراسة ليتقدموا إلى الأعداء . ارتجفت راوينا . . لقد قرأت القليل عن تاريخ الحدود الدامي منذ أن تلقت رداً يشير إلى القبول بطلبها الذي يقتضي أن تكون سكرتيرة لدى الماركيز كالدونيان، وها هي تعبر الحدود ودافعها الانتقام . . . ولكنها الآن بدأت تشعر بالخوف . . . فالتاريخ يسرد أن الانكليز والاسكتلنديين كانوا متكافئين بشكل عادل . . والانتصارات والهزائم كانت منقسمة بينهم بالتساوي . . لكن هذا، كان قبل أن تؤثر المدنية بحضارتها حتى على الإنكليز القساة القابعين على الحدود . وقد ذكر هوارد أن هذا التأثير ما زال سارياً وكأنه برقع خداع فوق مزاج اسكتلندي شرس، تختبئ خلفه القسوة والبربرية الجاهزة في أية لحظة على الانقضاض .

راحت تدريجياً أثناء سيرها تقرأ أسماء المناطق الاسكتلندية النكهة: ماكسويل تاون، لوتشار بريغز، بلاك كريغ . . ثم أخيراً . . كالدونيان! انتفض قلبها عندما لاحظت أن للقصر لوحة خاصة به يشير السهم فيها إلى طريق ريفي طويل، يمر بين أحراج كثيفة وبين وشائج من الأشجار الشائكة المرتفعة الكثيفة، بحيث لا يرى شيء من فوقها أو من بينها ولكن غريزتها أنبأتها أنه طريق خاص واسع، فرش بالحصى وشق بين غابة من الشجيرات الوردية الكثيفة، التي ترتفع عن الأرض ما لا يقل عن ثمانية أقدام . وهي مليئة بالورود، وكأنها ممر براق قرمزي اللون قادها إلى الأمام، حتى وصلت فجأة، وبشكل مباغت إلى فسحة . . وهناك، أمامها مباشرة، في موقع متعالٍ شامخ ارتفع صرح فخم مهيب، هو قصر كالدونيان!

سرعان ما توقفت هناك مذهولة . فللقصر شكل الحصن ومناعته، وليس هناك ما يخفف من صلابته منظره إلا نحت كثيف فوق قناطر

نوافذه . . كان هناك درج حجري شبيه بحدوة حصان يرتفع عن المدخل الرئيسي كذراعين حجريتين ممتدتين وكأنهما على أهبة الاستعداد للعناق أو السحق . وكان هناك أيضاً برج الساعة الذي حُفر فيه تاج الدوقية . نظرت إليه مسحورة ثم لم تلبث عيناها أن جالتا على لون حجره الوردي وعلى قبته الرمادية . بدا لها القصر منيعاً ضد أي غزو فهو محصن عن جوانبه ومن خلفه تقبع غابات كثيفة من الصنوبر .

ركنت سيارتها تحت ظل عواميد منخفضة قبل أن ترتقي السلم الحجري الذي قادها إلى الأعلى حيث الباب الضخم المصنوع من خشب السنديان الصلب . سحبت نفساً عميقاً، ثم أمسكت مقبض الجرس النحاسي بشدة . . ولكن الصوت الذي تعالي عقب طرقتها لم يخترق الجدران بوضوح، وما هي إلا دقيقة، حتى تأوه الباب ووقفت وجهاً لوجه أمام عجوز شمطاء حادة القسمات، ترتدي الأسود من رأسها حتى أخمص قدميها، ولهذه العجوز عيناان ثاقبتان مشبعتان بالريبة، راحت تمنع بهما النظر في راوينا قبل أن تفتح فمها الأشدق لتقول:

- القصر مقفل أمام العامة . . لقد دُوّن الوقت المحدد لفتحه على لوحة قرب الباب الرئيسي وهي واضحة للعيان .

انتفضت راوينا قليلاً لكنها لم تلبث أن قالت بوقار هادئ:

- اسمي راوينا هافرشام . . لدي موعد مع الماركيز . هلاً قلت له إنني وصلت؟

تراجعت العجوز إلى الداخل دون أن يرف لها جفن، ثم أشارت برأسها إلى راوينا لتلحق بها وبعد ذلك أمرتها بالتوقف ثم شقت طريقها في الردهة واختفت في العتمة:

- انتظري هنا . . سأرى في أي مزاج هو .

سترى في أي مزاج هو!

غاصت راوينا متهاكة على أريكة خشبية، وأخذت تنظر إلى ما حولها فلمّا رأت المدنية تلتف حولها ارتفعت معنوياتها قليلاً . . كان في الردهة لوحات زيتية ممتازة وساعة فرنسية رائعة مستطيلة الشكل وتمثال إيطالي نادر وكراسي تعود إلى القرن السابع عشر وهي مصطفة أمام جدران مكسوة بخشب مصقول حملت قلوباً مطلية بالذهب .

بعد دقائق من صمت ثقيل لم تقطعه سوى دقات الساعة الرهيبة، وجدت الشجاعة الكافية للسير نحو المدفأة التي أدهشها أن تكون مصنوعة ببراعة من خشب يماثل ما رآته على البرج الحجري . فعلى سطحها حُفر بعمق تاج الدوقية وتحت التاج حفر شعار باللاتينية يقول «صدق أنك تملكه، وستملكه!» .

كانت حائرة بشأن معاني الشعار حين رنّ صوت رفيع في أذنها:

- صاحب السعادة سيراك الآن .

ذعرت راوينا فقد آن أوان المواجهة . بعد لحظات، ستكون وجهاً لوجه مع الرجل الذي قدمت إلى هنا لتكرهه، ولكن عليها كونها الموظفة المحتملة أن تبسم له بعذوبة وأن تجلس عاقدة الذراعين وعليها في الوقت نفسه مقاومة مشاعر كره تدفعها إلى تمرير أظافرها الحادة على طول بشرة وجهه الخالي من الرحمة .

أدخلت عبر باب قادها إلى قاعة ظنتها فارغة فراحت تتمتع بجمالها . كانت الجدران مغمورة بلون أخضر شاحب وبزخرفة مائة ذات إطار ذهبي وكانت الرفوف مليئة بالبورسلان المنمنم . وفي القاعة أيضاً كراسي مذهبة، ومساند مغطاة بأعمال يدوية، وخزانة جميلة التطعيم، تحتوي على وعاء من خزف ميسينا يعود إلى القرن الخامس عشر وهو مزين برسوم تنين ذهبي وعلى اليمين في الزاوية مدفأة وأريكة مريحة المنظر، مزدانة بالوسائد المكسوة بالقماش المزخرف وعلى جانبيها طاولات تحمل مصابيح ذات قوائم عاجية، إطاراتها من الحرير

العاجي اللون. وهناك عدة مجلات منتشرة كانت تشكل واحة بيئية أمامها طبق مجوف مليء بأزهار عطرة الرائحة، ساعدت في تشتيت القليل من الجو الرسمي الطاغي.

لفتت نظرها حركة قرب النافذة فالتفتت مذعورة إلى ذلك الاتجاه وإذا بعينيها تلتقيان بعينين سوداوين كالأبنوس، تعكسان قلة اهتمام مهينة فقد راحت هاتان العينان تمران فوق جسدها النحيل المتوتر وفوق وجهها المتجهم وعينيها الواسعتين المحاطتين بأهداب تتناقض مع لمعان شعرها الأشقر الفضي. عندما رفع هامته، انتصب جسده النحيل وكأنه شجرة من أشجار السرو الباسقة المنتصبّة التي تحمي قصره.

- آنسة هافر شام؟

جذبت نفسها بقوة إلى الانتباه فقد أحست وكأنها مضطرة إلى الانحناء، ثم، وبعد أن صدمتها تفاهة الفكرة، دفعت نفسها للرد بصوت معتدل:

- أشكرك لورد كالدونيان، لأنك سمحت لي بهذه المقابلة.

توقعت أن يكون صوته خشناً ولكن، الرنين العميق الذي خرج من بين شفتين قاسيتين كالغرائيت أدهشها.

- أريد منك منذ البدء ألا تتوهمي شيئاً عن طبيعة الظروف السائدة في هذه المنطقة. ليس هنا سينما أو ديسكو أو حانات وباختصار أقول إنه ليس فيها أي نوع من التسالي التي اعتادها جيلك.

كان يتحدث وكأنه رجل آلي معتاد على تكرار كلمات حفظها فكان أن اخترقت نظره الحادة المهيبة درع تحفظها، وأثارت فيها إحساساً بخطر كامن منذ سنوات. لم يسبق لها أن تسارعت نبضاتها بهذه الطريقة أو تعرّقت راحتيها أو جفت شفتاها حتى عندما قامت بمقابلتها الأولى طلباً لوظيفة إثر تخرجها من الكلية. ردت متلعثمة:

- أنا... أنا، لا أحب مثل هذه الأشياء وما أحببتها قط. حتى حين

كنت مراهة. أنا في الخامسة والعشرين، لورد كالدونيان، وهذا عمر يجعلني أكون لنفسي ذوقاً لا يُدان.

قاطعها بسرعة:

- ربما... سنرى.

أشار إليها أن تقعد دون أن يتحرك وتريث حتى استقرت على أريكة، ثم فاجأها باعتراف مفاجيء:

- لم يكن لدي خيار سوى عرض العمل عليك على أساس التجربة... فطلبك هو الطلب الوحيد الذي تلقينته رداً على إعلاني. كنت أفضل موظفاً ذكراً، ولكن قلة من الذكور بارعون في فن الاختزال والطباعة... لذلك أنا مضطر وإن مرغماً على القبول بما هو أقل من الأفضل... امرأة. على أن تكون اسكتلندية! ولكنني أراني مضطر للقبول بك... أعتقد أنك تعرفين الطباعة، وإن سرعة اختزالك تبلغ عشرين كلمة في الدقيقة على الأقل، وأنت قادرة على الكتابة دون أخطاء إملائية أو قواعدية...؟

أخفضت أهدابها تخفي عنه لهيباً عنبرياً مفاجئاً، وردت وهي تعض على شفتها لتمنع تدفق الكلمات الغاضبة.

- أظنك ستجد مهارتي مرضية لك.

رد بصوت لاذع:

- وهل أنا مضطر للاعتماد على كلامك فقط؟ أليس معك شهادات أو توصية من رب عمل سابق؟

لم يُقته إجفاله... يا لها من غبية! ففي توقها إلى مواجهة هذا الرجل الكريه نسيت ضرورة مثل هذه الطلبات. أحست أنها بدأت تحمر، وقالت:

- أنا... أنا...

- أوه... نسيتها؟

لم تسمع من قبل صوتاً مشبهاً بهذا القدر من الازدراء:

- سأقدر قدراتك بنفسى، وإن كنت لم تتمكنى بسبب طيش عابر في الماضي، من إيجاد عمل في مكان آخر، فهنا، في قصر كالدونيان لن تجدي الفرصة لارتكاب أي هفوة. وإذا أغوتك نفسك بالفرار ببعض فضيات العائلة فستعتقلين قبل أن تصلي الحدود. وإذا، وهذا يبدو أكثر احتمالاً، كان الطيش مع شخص من الجنس الآخر هو سبب سقوطك، فمن الصعب أن تجدي بديلاً تزدهر عليه اهتماماتك.

تملكها غضب لا يوصف، فوقفت بحدة صائحة:

- كيف تجرؤ على هذا الكلام!

بدا سئماً وهو يرد ببرود:

- أوه... بل أجرؤ... هل تنكرين عجزك عن إحضار توصية من رب عملك السابق؟

فتشت في عقلها بجنون عن كلمات تهشم فيها غرور هذا المتعجرف الذي يتمتع بإذلالها. ولكن ما العمل؟ فلو اتصلت بالسير دوغلاس طلباً لتوصية شفوية لتلقت منه أسئلة لن تنتهي ولن تتمكن من الرد عليها. نعم هي تملك شهادات كثيرة ولكن إن قدمتها له الآن أثارت شكوكه... فما هو الرد الذي قد تقدمه على هذا التحدي، والسؤال الحتمي هو ما الذي يدفع سكرتيرة تملك هذه المؤهلات إلى التقدم لوظيفة من الدرجة الثالثة، في غابات اسكتلندة النائية؟...

ما عليها سوى أن تبتلع ريقها ومعها كرامتها وتهمس:

- لا... لا أنكر...

كانت تعتقد أن صوته بارد، حتى قال لها آمراً، فخطف الجليد أنفاسها:

- بإمكانك البدء بشهر تجربة منذ صباح الغد... سأرن الجرس لأليس لترشدك إلى غرفتك... أظنك فعلت ما نصحتك به، وأحضرت

معك ما يخولك الإقامة هنا فترة قصيرة؟

بدا كلامه وكأنه يظن أن الشهر أكثر من كاف، وعند هذه النقطة وافقته. إنها حتى الآن لم ترسم خطة للانتقام بعد. فقد تقدمت للوظيفة بتهور وغضب، ولم تدرس الأمر ملياً فكل تفكيرها انصبَّ على أن تكون قريبة من المركز لتسبح لها فرصة الانتقام وما زالت تتعلق بهذا الأمل، خاصة بعدما اكتشفت بنفسها إلى أي درجة مقيت هذا الرجل وعليه ومهما كلفها الأمر ستجعل «الطاعون الأسود» يجثو أمامها.

ولكن الفكرة لم تكد تتجسد حتى تحرك المركز لأول مرة أمامها. كان هناك جرس قديم الطراز تدلى على بعد ياردات منه. عندما تقدم منه، تجمدت نظرتها، فقد لاحظت بإشفاق غريزي حاد، أن لديه عرجاً مؤكداً وهذا الاكتشاف ألمها في الواقع... كان الألم يشبه ذهولاً وصدمة أحست بها مرة في حديقة حيوان في لندن عندما رأت منظر ذكر أوز مكسور الجناح.

لم تدرك أنها تحديق إليه إلا حين أيقظتها لهجته القاطعة:

- أجل آنسة هافرشام... كما ترين... أنا عاجز. والآن أتفهمين لماذا قلت إنني أفضل توظيف الرجال؟ إذا كنت تعتمدين على إضافة جلدة رأسي إلى حزامك، فلا شك أنك الآن تعيدين التفكير.

حطمت سخريته اللاذعة آخر حاجز لاذت به للسيطرة على نفسها، فتطايرت الشفقة من عيني غاضبتين وصاحت:

- يبدو لي أنك عليل العقل إضافة إلى اعتلال الجسد لورد كادونيان. إن عدم قدرتك على تحمل المرض هو بحد ذاته مرضاً. أصبح وجهه عاصفاً:

- يا إلهي! هل أنا مضطر إلى المعاناة من التزمت شهراً؟ إنما أعتقد أن عليّ أن أكون ممتناً لأنك منحتني الشفقة والأفكار المريحة! فأنا رب عملك الكاره توظيفك آنسة هافرشام، وأنت اليائسة إلى العمل. قد

يظن المرء أن عليك الحفاظ على لسان متمدن، أم أن ما أسمعته هو التقليد القديم العهد الذي يقتضي أن تصارع المرأة الرجل؟ أتحاولين العبث بطريقة ما والتدلل لأنك رشيقة خفيفة الحركة فيما أنا عاجز؟ أذكرك منذ البداية، أنني رغم حالتي المنفرة أجذك غير جذابة.. وأذكرك من أشياء قد تركبينيها فقد تعمدين إلى إثارتني وسأبادل بعدم الاهتمام، لكن هذا التصرف قد يؤدي إلى تبدل في التصرفات. ترى كيف ستتصرفين عندما تتبدل الأمور؟ في الواقع لست بحاجة إلى التساؤل، فأنت بطبعك النسائي الغادر ستكررين أنك تقوديني إلى شيء، وستقسمين بأن العبث هو آخر ما يرد في ذهنك. ثم ربما تنفجرين بالبكاء متهاوية، تنتحبين مجاهرة بالاحتشام والطهارة. لذلك، وقبل أن تسلكي هذا الطريق، آنسة هافرشام، أنصحك بالحدز وأذكرك أن المساواة بين الجنسين في هذه الأيام، تميل إلى إدانة المرأة لأنها تقوم بالإغواء ولا تلقي العبء على الرجل لأنه يستجيب.

تصاعدت كراهية راوينا الغاضبة حتى راحت ترى وجهه عبر غلالة من لهيب... وبحثت بعجنون عن كلمات تجرحه فيها، عن خناجر لفظية حادة تهشم بها كبرياءه كما هشم كبرياءها. حاولت التكلم مرة، مرتين، ثلاث مرات وفي كل مرة منعها الغضب الذي خنق الكلمات في حنجرتها. أما هو فلاحظ عذابها وبدا مسروراً به. كان وجهه القاسي يبدو مظلماً أمام وجهه الشاحب القاسي قساوة الصخور وكانت عيناه ساخرتين، وفمه غير متسامح. ولكنه كان حساساً من عجزه، وهذا سلاح وضعه بنفسه بين يديها.

واستخدمته... وقد أعماها الغضب عن الاهتمام بما ستكون النتيجة، فهي لا تريد سوى الانتقام لمشاعرها المهانة، والهدف انتزاع هذه البسمة عن وجهه.

- أنت تكره بنات جنسي جميعهن لورد كالدونيان. ولكن هل

كرهك لهن مجرد واجهة؟ فأنت رغم إرادتك الحديدية، والكراهية الزائفة التي تدعيها للنساء، تحسن في الواقع بأنك مخدوع، محبط، مربوط بقيود من العفة فرضتها على نفسك بنفسك؟ ضحكت، بصوت بارد حاد أجفلها... وأضافت:

- إذا كانت هذه هي حقاً المسألة، فأنت فعلاً أهل للشفقة... هذه أنا... شابة جذابة ربما عليك القبول بها سكرتيرة لك... ما هذه المفارقة! يبدو أنني بالنسبة لك هدية لوز لرجل لا أسنان له!

٤ - لعنة الساحرة

بعد أسبوع على هذه الأحداث، فوجئت راوينا، لأنها وجدت نفسها ما تزال موظفة عند المركز، فبعد انفجارها الغاضب المتهور الذي ندمت عليه فيما بعد، توقعت أن يتخلص منها في الصباح التالي. لكن ولسبب حيرها، سمح لها بالبقاء.

كانت أليس تردد أمامها مثلاً ماثوراً يقول: هناك أكثر من طريقة لسلخ القطة! ولقد فسرت راوينا هذا التعبير على أن هناك طرقاً مختلفة لإتمام أي عمل. وفيما يختص بالقصاص ثمة طرق كثيرة للتنفيذ والمركز يعرفها كلها.

ظلت أسبوعاً كاملاً تواجه معركة إرادات فمن جهته مال لدفعها إلى العمل حتى الإعياء. ومن جهتها صممت ألا يشعر بالرضى عندما يسمع كلمة احتجاج تقولها. صبيحة يوم الاثنين، تبعت طيفه المتجههم إلى مكتبه وهناك أشار إلى طاولة مكدسة بالملفات: فواتير، إيصالات، كشوفات حساب، وآلة تسجيل تحتوي شريطاً طافحاً بالرسائل، هذا عدا شريطين آخرين حافلين أيضاً بالرسائل كانا قرب الآلة.

رمى لها دفتر عناوين أمام الآلة الطابعة، ثم دخل غرفة مكتب مجاور، قائلاً بابتسامة مخادعة خبيثة:

- نادني إن احتجت شيئاً.

ولقد احتاجت، لكنها لم تناده.

كافحت لتفك رموز عمل لم تعتد عليه فأمعنت النظر والدراسة لئلا يجد سبيلاً إلى أي شكوى. قضت الأيام الأولى محبطة إحباطاً تاماً لكنها تدريجياً راحت تحمل إليه أكواماً من البريد الجاهز وكانت في كل مرة تعود دون أن يقول لها كلمة تقدير ودون أن يشكو من عملها، وما إن حلّ يوم الجمعة حتى وجدت أنها قد بدأت تتمتع بمهارتها في إنجاز هذا العمل الصعب وما عزز غرورها كسبها جميع الجولات في هذه المعركة.

في الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم الجمعة الحار الرطب، دخل مكتبها يعرج... فحضرت نفسها تلقائياً للمعركة وراحت تنظر إلى جسده البرونزي المفتول العضلات التي برزت تحت قميص من الحرير، مفتوح الياقة. نظرت إليه بعيني قطة مرتابة ولكن فروها عاد إلى نعومته عندما سمعته يقول:

- توقفي عن العمل اليوم، فالطقس اللعين حار جداً. ثم يبدو أنك قد أنهيت معظم العمل المتأخر.

كانت جملة متكلفة، ولكنها تكاد تكون تقديرًا! إلا أن قوله هذا لم يمنعها من الرفض الذي قصدت منه الإساءة والعناد.

- سأكمل العمل فترة أخرى... هناك...

- بالله عليك! وفري عليك هذا التظاهر الأنوثي بالتضحية وافعلي ما أقول! ضعي الغطاء على الآلة الكاتبة واذهي... الآن!

هبت على قدميها واقفة بخوف مخزٍ ولكن ذلك لم يمنعها من رفع رأسها بشموخ قبل أن تخرج لتواجه ابتسامات رجال كانوا يعملون قريباً بحيث استطاعوا سماع أوامر السيد، ترنّ عبر نوافذ المكتب المفتوحة. ولكن الابتسامات كانت ابتسامات إشفاق كما اكتشفت فحين مرت بجماعة تنشر الأخشاب قال أحدهم وهو المسؤول:

- لو سلكت هذا الطريق آنسة وصلت إلى سقيفة صيفية، تطل على

شلال . . وهي أبرد منطقة في الأملاك كلها . أؤكد لك .
تضرج وجهها فقد أثارته الكلمة اللطيفة الأولى التي تسمعها منذ
أسبوع :

- شكراً لك . . أقلت من هنا؟

- أجل آنسة ، في الممر أسهم تشير إليه ولكن لا يسمح للزائرين
بدخول السقيفة الصيفية ، فلإنها قديمة جداً يجب أن تُحمى من الضرر .
إن انتظرت لحظة أحضر لك المفتاح ، فأنا واثق أن صاحب السعادة لن
يمانع .

وفيما هي تنظر بريئة إلى ظهره الذي كان يعطيه للمكتب ، ترددت
لأنها توقعت أن يرفض صاحب السعادة ولكنها دهشت حين عاد الرجل
وهو يحمل لها المفتاح :

- هاك المفتاح آنسة . . تأكدي من إقفال الباب ثانية وأعيدي
المفتاح إلى السيد بعد عودتك .

كان الطريق يمرُّ في غابة بهيجة ، سارت فيه راوينا ببطء ، تتشقق
عبير زهر الشجيرات الكثيفة حولها ، عندما وصلت وعلى غير توقع إلى
وهاد منخفضة مكسوة بأزهار بريّة عطرة الرائحة أغرتها نفسها
باستكشافها واستكشاف ما بعد الممر لكنها قاومت اندفاعاً إلى الهيام
على وجهها في أحضان العشب المرتفع لثلا تضيع في هذه الأملاك
الضخمة التي بدت لها بلداً بحد ذاتها .

راح الممر يرتقي صعوداً ، ثم انجلى عن فسحة احتل وسطها بناء
مستدير ذو سقف مخروطي الشكل . . تقدمت منه بفضول واستغراب ،
وقد حيرها تركيب الجدران ذات المنظر غير المألوف . ثم اقتربت
لتلمسها وعندها شهقت بذهول لأنها اكتشفت أن هذه الجدران مصنوعة
من القش . . كان البناء عبارة عن هيكل متين محبوك ، يعلوه سقف من
قش كذلك .

فتحت الباب بلهفة ، ودخلت وسرعان ما انجذبت إلى فتحة لها
شكل نافذة خالية من الزجاج . نظرت إلى الخارج فسحرتها منظر ممر
صخري يضيق في أسفله الذي يقبع عند شلال يترقرق مندفعاً نحو
الصخور المنتشرة حوله .

في هذه اللحظات ، أحست بالرضى وبالسعادة العامة . كان الجو
حولها ساحراً فقد رأت في هذا المنزل قروناً من التاريخ النضالي
الممزق ، كما رأت فيه واحة أمن لمن سكنه من عائلة كالدونيان فهو
مكان لم يأو إليه سوى أشخاص مرحين سعداء . . مكان ، ربما شارك
فيه زوجان فرحة الاتحاد مجدداً بعد طول فراق ؛ مكان كان الأحبة فيه
يلتقون ، والأطفال يلعبون .

تمطت باسترخاء وكسل . . إنها نعمة من الله أن تأخذ قسطاً من
الراحة من جبل المراسلات الضرورية لإدارة مثل هذه الأملاك الواسعة .
فامتداد وتنوع مصالح صاحب السعادة ، أدهشها . من خلال الرسائل
التي مرت بها علمت إلى أي مدى يستغل أملاكه . . فالغلال التي تُجمع
من الأراضي تنقل إلى معامل وأسواق . والملفت للنظر أن الخدم
والتابعين وظفوا فقط لتأمين الخدمة الجيدة للزائرين الذين يودون
التمتع بصيد السمك والذين ينفقون مالاً وفيراً مقابل الامتيازات التي
يتلقونها لإيجاد ما يحبون اصطياده في أنهر مليئة بالسمك على أنواعه
ولكن لبعض هؤلاء الزائرين هوايات أخرى تنحصر في التفتيش عن
الصيد البري ، وهم لقاء السماح لهم بالتجول في الأحراج والوديان
يدفعون ثمناً باهظاً أيضاً .

إن مبلغاً ضخماً من العائدات يتدفق على خزينة القصر من
الزائرين ، الذين يتوافدون من كل حذب وصوب لإبداء إعجابهم
بالقصر من الداخل ولكنهم أثناء تجولهم في القصر يشترون
المرطبات ، والكتب والصور وأشياء يدوية الصنع ووشاحات صوفية

حيكت يدوياً، كما يشترتون في تلك الأثناء حيوانات حفرت على الخشب، ورؤوس ذكور الغزلان المحفورة في الخشب كذلك. هذا عدا الحلوى المميزة أو الحلويات اللذيذة التي تصنعها أيادي عمال الأملاك وزوجاتهم.

حين قاطع صوت أحلام يقظتها، انتفضت متسائلة من هو صاحب هذا الجسد النحيل الصغير الذي ظهر وكأنه اختراع خيالها. لكنه ليس خيالاً... فيها هو يحييها ثانية.

- مرحباً... أنا ريموس سايتون. من أنت؟

- اسمي راوينا هافرشام، وأنا أعمل لدى صاحب السعادة.

لم يظهر وجهه الصغير الوقور الدهشة أو الاهتمام. إن هذا الواقف أمامها لا يزيد عمره عن الستة أو السبعة أعوام ولكنه رغم ذلك ليس فيه ذرة من الطفولة، فهو يبدو رغم شعره الأحمر كبروفسور وقور.

- فهمت... أنت إذن سكرتيرة عمي سكوت الجديدة.

- وهل صاحب السعادة عمك؟

هذا هو ابن الأخ الذي ذكره هوارد إذن، ابن أخ المركيز. والغريب أنها لم تصادف أحداً منهما في الأسبوع الماضي، ولكن من أين لها رؤيتهما والعمل كان يبقيا في المكتب طوال النهار، أما في الليل فكانت وجبات طعامها تقدم لها في غرفة صغيرة في الطابق السفلي وكانت كل مساء تشعر بالسعادة عندما ترمي نفسها في الفراش باكراً قدر المستطاع لتستعيد قوتها لعذاب اليوم التالي.

مدت يدها، تقاوم ابتسامة:

- كيف حالك ريموس؟ أنا سعيدة بالتعرف إليك.

أمسك يدها، وهزها قليلاً:

- وأنا سعيد أيضاً.

كان هدوءه الوقور موروثاً، وليس تظاهراً كما ظنت في البداية لذا

وجدت أن تصرفاته غريبة جذابة، حذرة كعادة أطفال الإقطاعيين، وهذا ما أحزنها بطريقة ما.

دنا منها لينظر إليها بعينين واسعتين قبل أن يسأل باهتمام يكاد يكون أبوياً:

- أيعجبك العمل عند عمي؟ يعجب العمل بعض الناس ولا يعجب بعضهم. هذا يعتمد على ما إذا كانوا يقفون إلى الجانب الصحيح أم الخاطئ.

- أنا... أجد العمل مسلياً.

بدا خائب الأمل:

- ألسنت خائفة منه... إذن؟

- يا إلهي! لا! وهل يجب أن أخاف منه؟
هز رأسه:

- أظن هذا. يقول أبي إن على من يعمل عند عمي سكوت أن يكون جلده سميكاً كجلد وحيد القرن وأن تكون قوته قوة ثور... وأنت تبدين رقيقة لطيفة، وهو سيء الطباع، إنما هذه ليست غلطته في الواقع. كل ذلك بسبب اللعنة.

- اللعنة؟

- أجل... لعنة عائلة سايتون.

اعتدل في وقفته فنظرت إليه مذهولة مما تسمع.

- لقد أخبرني ماريان كل شيء عنها... فأحدى جداتها كانت «ساحرة»... أتعلمين هذا؟

حين هزت رأسها نفياً، سارع ليوضح لها الأمر:

- أجل... وبسبب جرائمها في الشعوذة ربطت إلى وتد حتى خُنقت ثم أحرقت... وتظن ماريان أن جدتها هذه هي التي رمت اللعنة على عائلة سايتون... ولو كانت ماريان موجودة قبل مئات السنين لأحرقت

على الأرجح مربوطة على وتد... فهي تملك قدرة الاستبصار، والتنبؤ المسبق بما سيحدث.

- أوه... لا أعتقد ذلك...

لكن احتجاجها قطع:

- لقد عرفت بموت كليبي الصغير. أخبرتني أنه سيموت قبل أسبوع! يجب ألا تهزئي من قدرات السحرة! هذا ما فعله أجدادي ولذا أصبح عمي سكوت أعرج!

اتسعت عيناه وهو يتكلم فسارعت راوينا تحتج خجولة من نفسها لأنها سمحت لطفل بالتمادي إلى هذا البعد:

- أوه... حقاً...

لكن عناد سايتون أظهر نفسه من الذقن الصغير الذي ارتفع عندما لاحظ عدم تصديقها له فقال مصرأ:

- منذ قرون بعيدة استخدمت عائلة سايتون كالدونيان جدة ماريان، بسبب قدرتها على قراءة الغيب، مستشارة... بعد استعادة الملك تشارلز الثاني عرشه عام ١٦٦٠، استدعي زعيم عائلة سايتون إلى لندن ليقوم بعمل خاص بالدولة تاركاً زوجته في القصر. وبما أن زوجها تأخر في إتمام عمله، طلبت اللايدي سايتون من عرافتها أن تقول لها ماذا يفعل زوجها... في البداية رفضت أن تقول... لكن اللايدي أصرت على المعرفة ومع ذلك أصرت على الرفض حتى قالت الحقيقة أخيراً أثناء اجتماع قامت به عشيرة سايتون في القاعة الكبرى في قصر كالدونيان.

«سيدك لا يفكر فيك ولا في أولاده ومنزله. أنا أراه يحيط بذراعيه سيدة شقراء واضعاً يدها على شفتيه!» ولأن اللايدي كانت تشك في هذه الحقيقة المخزية غضبت، فصبت حقدتها على العرافة المسكينة. وحكمت عليها بالموت بسبب تنجيمها، فأخذت المسكينة تتوسلها

لإنقاذ حياتها ولكن حين رأت أن اللايدي سايتون لن تغير رأيها... تكهنت لها بالمزيد وكان ذلك بمثابة اللعنة.

أردف الصبي بصوت مرتعش بارد، بعث القشعريرة إلى نفس راوينا:

«إنني أرى المستقبل البعيد وأقرأ فيه أن هناك سقوطاً مريعاً لمن يضطهدني... أرى أن في كل جيل من أجيال العائلة «سايتون أسود» و«سايتون أحمر» الأحمر سيمتلك السحر والفتنة تعويضاً عن قلة ثروته... أما الأسود فسيرث كل ما يحق للابن البكر إضافة إلى حمل كبير من سوء حظ أخيه. والدليل الذي يعرف به كل واحد منهما التشوه، فالأحمر سيعمل إصبعاً مشوّهة والأسود ستكون قدمه مشوّهة...!»

رفع يده ليبرز إصبعاً ملتويّاً أمام عينيها:

- أليست محظوظاً لأنني ولدت أحمر؟

غطت راوينا عينيها بيديها خائفة وجلة:

- توقف عن هذا!

أحست بالغضب الشديد من ماريان التي أدخلت إلى رأس هذا الطفل مثل هذه الخرافات الخيالية التي راح يكررها كالبيغاء، ولكن سايتون الأحمر نظر إليها بخبث راضياً عن عنف ردة فعلها.

- قلت لك لا تسخري! أنت تصدقيني الآن... أليس كذلك؟

- أصدقك؟ أنا لم أسمع قط مثل هذا القدر من الهراء! سأكلم ماريان في هذا الصدد فلا يحق لها أن تملأ رأسك بمثل هذه القصص السخيفة!

فيما كانت تهبّ واقفة شعرت لسبب مجهول بأنها نائرة ثورة لا تطاق، أما هو فوقف يواجهها قائلاً:

- إنها ليست سخافات... حينما أصبح صاحب السعادة فسأشرف

بنفسي على معاقبتك بسبب ما قلته!

على الرغم من حداثة سنه، أو ربما لهذا السبب بالذات، أحست راوينا أن مثل هذه العجرفة يجب ألا تمر بدون ردة فعل.

- حين تصبح صاحب السعادة؟ لكن هذا أمر بعيد الاحتمال، فعمك ما زال شاباً وهو دون شك سيتزوج ويرزق أطفالاً ستكون لهم الأفضلية.

نظرته المحقرة لها والساخرة منها لم تهيئها نفسياً لرده المفاجيء:

- عمي سكوت لن يتزوج أبداً.. ما من امرأة ترضى بحمل طفله المشوه حتى ولو تمنى ذلك.. وهو لن يفعل.

أغضبها رأيه الواعي وتماسكه غير الطفولي. هذا التصريح الأخير لا يمكن أن يكون استظهاراً عفوياً، ولا يمكن أن يتوصل إليه بقوة منطقته.. بل لا بد أن يكون نتيجة استراقه السمع لأحاديث الكبار.. الكبار الذين كان عليهم أن يكونوا أكثر حكمة وتعقلاً لئلا يضعوا مثل هذه الأفكار المشينة في رأس طفل صغير وحيد، يُترك كثيراً لأفكاره الخاصة حيث يدفعه السأم إلى أخذ أقوال الخدم على محمل الجد.

وضعت يدها فوق كتف ريموس بقوة جعلته يئنّ ألماً، فقالت امرأة، ولهيب الغضب يحذره من العصيان:

- اصحبني إلى والدتك.. لديّ كلمات أقولها لها.

رد عابساً: «لا تعيش والدتي معنا».

- والدك إذن.

فجأة سقط قناع النضج عن وجهه، وأصبح صبيّاً صغيراً مضطرباً، وقال متلعثماً:

- لست واثقاً أين أجده.. ثم هو لا يحب أن أزعجه.

«وأنا واثقة أنه لا يحب أن تزعجه!» وتلاشى غضبها عندما رأت الأسنان الصغيرة تعضّ على الشفة السفلى المرتجفة، فانحنت تحتضنه

قائلة، بعدما قررت تغيير أسلوبها معه:

- دعنا نلعب لعبة التفتيش عن الكنز. وإنّ أول من يجد أباك منا، تتحقق له أمنية!

بدا لحظات مشّت الأفكار، كان وكأن جزءاً منه يبحث عما تبقى له من نضوج مصطنع، والأجزاء الأخرى تميل إلى لعب ألعاب الطفولة.. وفازت الطفولة:

- حسناً.. أظنه في المسبح. تذكرني أن أول من يجده هو الرابع! عندما انطلق راكضاً، تبعته وهي لا تدرك أخطار الإحساس بمثل هذه المشاعر القوية من الغضب بسبب «سايون الأسود» الرجل الذي أقسمت أن تكرهه!

٥ - الأسد المجنح

خرج ريموس من الغابة من حديقة ورد غارقة بأشعة الشمس، فمرّ بملعب تنس، ثم اختفى داخل بستان وكانت راوينا في إثره طوال الوقت تشاهد جسده الصغير وهو يسير متلوياً بين أشجار الفاكهة ولكنه حين دار حول صف من أشجار كبوش العليق البري غاب عن بصرها أما صوته المنفعل فظلّ يقودها إلى مكانه وكان أن وصلت إلى فسحة خالية شاهده يقف فيها أمام حافة مسبح قديم الطراز لم يكن سوى حفرة عميقة في الأرض يحيط بها بضع أحجار وردية اللون كحجارة القصر، وست درجات خشبية تقود إلى الماء الذي على الرغم من حرارة اليوم بدا بارداً بسبب افتقاده إلى أشعة الشمس.

كان جسد نحيل يشق الماء. عندما سمع صاحبه الصوت المنفعل الصادر عن الطفل، ارتفع رأسه الأحمر البراق فوق الماء وبدأ صاحبه السباحة نحو الدرج الخشبي.

- لقد ربحت آنسة هافرشام.. لقد رأيته أولاً.. وسأنال أمنيته!
- أجل عزيزي.. ستحصل على ما تريد.

ربتت رأسه بمحبة عن غير وعي تتساءل والمواجهة الآن وشيكة، كيف ستصيح احتجاجها الغاضب بدبلوماسية. حين سمعت صغير الإعجاب أدارت رأسها باتجاه والد ريموس المتقدم نحوهما.. قال لابنه مهنتاً:

- حسناً فعلت يا بني الكبير، أما زال هناك جنيات جميلات في أعماق الغابات؟

حاولت راوينا السيطرة على تضرّج وجهها فنظرت إلى الرجل بثبات وعندها اطمأن قلبها لما رأيته فقد اعتلت هذا الوجه ابتسامة فاتنة تعبر عن تأثر صاحبه بما يراه. كانت عيناه مرحتين عابثتين واثقتين مع أن عليهما أن تكونا مرتبكتين وهما تجولان على جسدها النحيل. بعد تجربتها مع كلمات العزل التي كانت تتلقاها من الاستقراطيين الشبان، استطاعت مواجهته باتزان رزين بحيث أدرك على الفور أن سيل سحره وفتنته، قد ارتد عنها أسرع من تبخر الماء عن جسده تحت أشعة الشمس الحارقة. فارتدت بسمته قليلاً وهو يمدّ يده ليتناول المنشقة، هارزاً كتفه هزة خفيفة توحى بأنه يقنع نفسه بأن ليس بالإمكان اكتساب كل شيء!

لوت فم راوينا شبح ابتسامة ملؤها الريبة. ليس هذا الرجل بمقاتل فهو يحب أن تقع الأشياء بين يديه، وهو قطعاً ليس من عيار أخيه الذي لا يقهر.

رنت ضحكة ريموس المفعمة بالغبطة:

- إنها ليست جنية أبي.. هذه الآنسة هافرشام سكرتيرة عمي سكوت!

- صحيح! كنت سأقسم...! حسناً! على أي حال، كيف حالك آنسة هافرشام. سمعت منذ أسبوع بوصولك لكنني بدأت أظن أن المعلومات مغلوطة. أين كنت مختبئة بحق الله؟
قاطعته ريموس:

- وجدتتها في السقيفة أبي.. وتسايقنا بحثاً عنك، ولقد كسبت، لذلك سأحصل على أمنية!

رفع حاجبه متسائلاً، وتمتم:

- بحثاً عني؟ هذا يرضي غروري!

ردت بسرعة:

- أجل... لدي ما يدفعني إلى التحدث إليك.

ابتسم لها:

- نادني جاك... وأنا سأناديك...؟

- راوينا.

- حسناً راوينا... إن انتظرت بعض الوقت ريثما أرتدي ملابسني تحظي مني على كامل اهتمامي وأنت أيها الشاب إلى الغداء... ألم يحن موعد غدائك؟

عكس وجه الصبي خيبة أمله ولكنه لم يحاول المجادلة. راقبته يسير على مضض نحو القصر، فأحست مجدداً بتصاعد غضبها... فالصبي مهجور، منقطع عن المجتمع وكأنه يتيم.

حين عاد والده مرتدياً ثياباً بسيطة أبرزت احمرار شعره الذي أشعلته أشعة الشمس بعدما جفّفه، لم تضع وقتها بل تطرقت مباشرة إلى صلب الموضوع ولم تترث حتى يقعد إلى جانبها على مقعد خشبي.

- تعرفت إلى ابنك قبل أقل من ساعة ومع ذلك أحس بالقلق عليه. أتدرك أن الطفل يأخذ إشاعات وأقاويل الخدم على محمل الجد؟ وأن ماريان قد ملأت رأسه بقصص خرافية يصدقها ويراهها الحقيقة الأكيدة؟ ضرب جاك ركبتيه مطلقاً صيحة ضاحكة:

- أهذا كل شيء؟ يا إلهي، قصص ماريان جزء من ميراثنا. نشأت وسكوت معها، ولم تضرنا بشيء. أؤكد لك أن الصبي سيتعلم عما قريب التفريق بين الواقع والخيال.

- لكن، أليس ظلماً تركه يصدق أنه يوماً سيصبح وارث هذه الأملاك؟ أليس ظلماً أن يصدق تلك التخيلات التي توحى بأن عمه لن

يتزوج أبداً بسبب لعنة خرافية سخيفة؟

سرعان ما عبس جاك:

- هل أخبرك ذلك الشيطان الصغير هذا حقاً؟

- أجل... وأشياء أخرى كثيرة.

- حسناً... أشكرك على ما أخبرتنه. سأسعى جاهداً لأفهمه أن

يُبقى الشؤون العائلية سرّاً في نفسه في المستقبل.

- ليست هنا القضية! ألا ترى أن الصبي في الواقع يؤمن بهذه

الخرافات! لذا من المهم توضيح الأمر له بحذر، وذلك بأن تؤكد له أن

الشائعات التي سمعها ليست سوى أكاذيب.

رد برصانة صارمة خطفت أنفاسها:

- لكنها ليست كذلك! اللعنة في عائلة سايتون موجودة. وسكوت

أوضح منذ سنوات طويلة نيته الأكيدة بأنه لن يتزوج. وأنا أعرف أكثر

من أي شخص آخر، أن هناك فتاة حاولت المستحيل ليُغيّر رأيه وكادت

تنجح... لكن لسوء حظها، تمسك سكوت بأفكاره في اللحظة

الأخيرة. فتزوجتني أنا ردة فعل على ذلك، ولم ينجح زواجنا. بعد

ولادة ريموس بسنة طلبت حريتها، وأرادت العودة إلى عملها. ولكن

الواقع أنني لم أكن أملك مواصفات سكوت... وكان عليّ أن أكون

أذكى فلا أحاول منافسة أخي... فحتى في طفولتنا، كانت صنارته هي

السبّاقة إلى اصطيد أفضل السمك وكان جواده الأول في الوصول إلى

خط النهاية، وبنديته الأسرع إلى إصابة الهدف. وما كنت أغلبه إلا

حين يتطلب الأمر القدمين، وهو كان دائماً حساساً من عجزه، لذا لم

يحاول قط القيام بما لا يستطيع، وكان أن وضع الزواج في هذا الإطار،

وبناء على ذلك سترين أن ريموس مع الوقت سيصبح وريث هذه

الأملاك.

مررت يدها على عينيها بذهول، وقالت:

- لست واثقة من فهمي لك . أنت لا تلمح بكل تأكيد إلى إيمانه بأن سبب إعاقته هي اللعنة؟ لا . . . هذا بكل بساطة ، غير ممكن ، فشقيقك ذكي ، بل كلاهما ذكي !

- عزيزتي راوينا . . لا علاقة للذكاء أبداً بالأمر . خذي . . انظري بنفسك .

مدّ لها يداً برونزية كاملة التكوين باستثناء إصبع مشوهة بطريقة غريبة . . فهزها الغضب من الضرب المستمر على وتر إرث صغير ، وقالت هازئة :

- هذا لا شيء ! إن معالجة هذه الإصبع في الصغر أمر سهل . هل عاينك طبيب يوماً أو عاين أخاك ؟

بدت عليه الصدمة والتراجع أمام منطقها البسيط ، وقال :

- لا . . لكن كل جيل من آل سايتون يتوقع أن . . .

- بالضبط . . وهو مكتوب في شعار العائلة : صدق إنك تملكه ، وستملكه .

جعله عنفها يرفع رأسه بحدة :

- يا إلهي ! أنت عنيفة ! أنت محارة باردة لها لب من نار ، وأنا شاكر لك اهتمامك بنا . أو . . أم أن الاهتمام ليس بعائلي بل بفرد من أفرادها ؟ ليتني أعرف سر جاذبية أخي التي يجذب بها النساء إليه .

وقفت ، تقاوم ارتجاع الغضب :

- اهتمامي بعائلتكم هو اهتمام ناظر أذهلته خرافاتكم وتعلقكم بها . يبدو هنا أن لكل شخص جذوراً مدفونة في الماضي وإصراراً على التعلق بمحظورات كان يجب أن تدفن مع مشيرها منذ قرون !

نظرت إلى القصر ، الرامي ظلاله فوق البستان المدثر بنور الشمس ، ثم قامت بإشارة يأس :

- أستطيع فهم طبيعة الحجر والعقد التي لا تتحرك ولا تتغير . .

ولكنني لا أستطيع فهم ركود عقول الرجال . . في الثلاثمئة سنة الماضية خارج سكون قصر كالدونيان تغير العالم كثيراً . أتدرك هذا ؟ أتدرك أن أول إنسان وطئت قدماه القمر ، تمتد جذوره إلى مكان ليس بعيد من هنا ؟

التوت شفتاه :

- بلى . . ذكريني أن أريك الشجرة التي غرسها نيل أرمسترونغ في حديقة القصر حين زاره منذ سنوات . . ويجب أن أفند مزاعمك بأننا متخلفون . لقد حوّل أملاكه إلى مكان عرض . . مستغلاً كل قطعة يملكها للكسب ، فحتى بيتنا تحوّل ويتحول مرتين في الأسبوع إلى سيرك لتسلية السواح الناظرين ببلاهة .

لم يردعها عن الرد طعم المرارة في رنين صوته :

- أرى أن أخاك يكره ما يفعل أكثر منك ولكن يبدو أن ما سمح به شرّ لا بد منه .

أكد جاك كلامها بضحكة :

- بمقدورنا الاعتماد على منطق ورأي سكوت مهما كانت النتائج غير مرضية : كم أتمنى لو أراه مرة واحدة فقط يعاني مما تعانيه مخلوقات الله على الأرض من عذاب وإحباط . على أية حال الجوع يرشدني إلى أن وقت الطعام قد حان وأنا أصرّ على أن تنضمي إلينا لتناول الطعام في المستقبل .

هزت رأسها بالرفض ولكنه قاطعها قبل أن ترد :

- بلى ! تناول الطعام مع أخي النكد الطبع أمر لا يحتمل في أي وقت كان ، ولكن تناوله مع امرأة جميلة ذكية ، أمر لا يستطيع التفكير فيه . . ارتدي ثوباً لعوباً وقابليني بعد نصف ساعة لتناول المرطبات قبل الطعام .

يملك جاك القدرة على إلقاء الأوامر كأخيه حين يرغب . لذلك

بعد خمس دقائق، وجدت راوينا نفسها تبحث في خزانة ملابسها، عابسة قليلاً، لأن ليس أمامها خيار كبير ولكن أخيراً قررت أن ترتدي ثوباً من الجيرسيه الرائع، ثوب يصرخ طلباً لجسد لا شائبة فيه وحين يجد من يقدره حق قدره يكافئ من يرتديه مكافأة عظيمة. بعدما رمت قماشه الأبيض على جسدها وقفت وكأنها شمعة رقيقة يعلوها رأس فضي الشعر، تلمع فيه عينا كهرمانيتان مائلتان إلى الصفرة، تحت قوس من الأهداب الناعمة التي ترفّ بجمال وأناقة، كرفيف نور الشمعة. راوينا فتاة بطبعها تحب العزلة ولكن حتى شخص مثلها قد يتوق إلى عشاء مع الناس بعد أسبوع من العزلة المرهقة لأعصابها ولكن الرفقة لن تكون كلها رائعة، فأحدهم مرضي وأحدهم كربه، قررت: صاحب السعادة لن يكون مسروراً بهذا. لكن هل يرضى عن شيء أبداً؟

وما خيب أملها أنها قابلته أولاً حينما دخلت القاعة الكبيرة. كان يقف وظهره إليها ويده في عمق جيبي سرواله أما اهتمامه فانصبَّ على تمثال برونزي. التقط نظرها منظر جسدي امرأتين أحدهما عند الأقدام والآخر بين ذراعي رجل مسيطر. عندما سمع وقع أقدامها استدار إليها فجأة فاضطربت ولكنها جمعت شتات أعصابها وقالت مبتسمة تشير إلى موضوع اهتمامه:

- يبدو مثيراً للاهتمام.

لم تكن تعابير وجهه الباردة أقل هولاً من رده المتجهم:

- إنه رمز (اغتناب نساء سابينا). من صنع الفنان «جيوفاني دا بولونجا».

تحرك جانباً حتى تنظر إلى تأثير الأجساد البرونزية التي تبرز التناقض بين النساء الراضيات المقاومات وبين مغتصبيهن. ولسبب ما أحست بالحرَج، فأعرضت عنه نظرها، فقال وكأنه يتسلى:

- هل آذى المنظر مشاعرك؟

ردت ببرود:

- تؤذيني دائماً مظاهر الوحشية. لم أستطع يوماً أن أفهم ماذا يحصد الرجال من اكتفاء من نصر جسدي بحت!

- لكن يقال إن نساء سابينا كن يتمتعن بمثل هذا!

- وهل هناك امرأة عاقلة تستمتع بعبوديتها؟ وهل يمكن ذلك لرجل؟

- لا. ولكن الجبن في النساء كثير وفي الرجال قليل. أما الخوف من العبودية فهو الذي يديم العبودية.

تراجعت أمام كلامه المشبع بالازدراء، لكنها أحست بأنها مجبرة على الرد:

- لم تعد النساء خائفات من الرجال!

قطب ينظر إلى نحولها الذي يشبه نحول الشموع.

- على هذه النقطة لا أوافقك الرأي. فالنساء عبادات مشاعرهن، لا يرضين حتى يجدن وليفاً يضعن على أكتافه أحمالهن، أما الرجل فيقدر حرته. حب امرأة هو القيد، وعلى الرجل أن يبقى دائماً على حذر من أن يصبح عبداً على مضض.

نظرت راوينا إلى وجهه المشبع بالازدراء، تتساءل عما إذا كان يقول حقيقة مشاعره أم أنه يخلق من حوله سداً، يخفي وراءه مطالب رجل ممتلىء رجولة، ولكن صوته قاطعها قبل أن تفهم.

- لقد أبدى أخي رغبة في أن تشاركينا العشاء. وبما أنك جئت

حاضرة مستعدة فهذا يعني أن لا اعتراض لديك؟

عندما كانت تتقدمه إلى غرفة الطعام أحست بثورة الغضب مما أوحاه صوته من أنها تمنى ذلك. ولكن، بما أنها لا تستطيع المجاهرة بالدفاع عن شيء لم يذكر، لم تستطع سوى أن تعض شفتيها وهو

يرافقها إلى حيث ينتظر أخوه.

أحست بالغبرة بسبب جلوسها بين رجلين، أحدهما أحمر كالنار، والآخر أسود كالخطيئة. ولكنهما كانا يرتديان ثياباً رسمية، فالسترة رسمية، وربطات العنق سوداء، والقميص أبيض وهي جميعها تبرز القسمة السمرء أما هي فكانت بينهما، نحيلة، بيضاء كالشمع، جليلة ساكنة ومع ذلك أحست بأنها غير قادرة على الانسجام مع طبيعة مرافقيها المتناقضة.

كانت الغرفة المكسوة جدرانها بألواح السنديان المصقول في الأصل ردهة، فلها مدخل من الفناء الخارجي يمر عبر باب ضخمة صلب من السنديان يقع من الداخل بين مدفتين حجريتين. وكانت على الجدران لوحات لأفراد العائلة، على كل واحدة منها لوحة نحاسية صغيرة حُفر عليها اسم صاحب الصورة ولقبه وتاريخ مولده ووفاته وكان فيها طاولة خشبية بيضاوية الشكل وضع في وسطها شمعدانان توأمان عليهما نقش حروف رمزية متشابكة وتاج. أما النور فتصاعد من شموع طيبة الرائحة، يلمع نورها الأصفر على الأوعية والكؤوس الفضية المزخرفة، وللأوعية حمالتان حُفر عليها شكلان أحدهما صورة لرأس حصان خرافي له قرن حاد، والآخر رمز لحيوان مفترس برزت بوضوح مخالفه وبانت أنيابه المكشرة بعدائية شرسة.

ارتجفت ارتباكاً تفكر، كم يلائم رمز الحصان الوحيد القرن جاك... فالحصان الخرافي، هو الحيوان الوحيد الذي تطوع لمهاجمة فيل، ولكنه كان يقع في الفخ حين يرى عذراء شابة في خطر، فيسارع لرمي نفسه عند قدميها واضعاً نفسه تحت رحمة صياديه. أما سكوت فلا يمكن إلا أن يكون ذلك الحيوان الشرس المكشّر الأنياب، سليل الأسود والنسور كما تقول الأسطورة. وهو حيوان نبيل، كان يستخدم شعاراً للأمراء لذا كان يحفر على دروع

العديد من العائلات النبيلة في أوروبا.

قدم لهم العشاء على أطباق فضية وعندما لاحظ جاك دهشة راوينا، نقر على الطبق الثمين بأظفره:

- لا تظهرى هذا القرف، أيتها الساحرة الفضية... إنما نستخدمها للمنفعة والمناسبات، وليست تقليداً لأسلافنا المبذرين. لقد استخدمت ماريان ومساعدتها الكثير من الأواني الخزفية وأتلفتها حتى لم يعد لدينا خيار إلا استخدام هذه. فالفضة لا تنكسر... مثلك أنت... إنه يخبىء قسوته تحت مظهر مخادع من الرقة... أتعلمين أن العلماء القدامى كانوا يظنون أن الفضة هي ممثلة القمر؟

سأل صوت كرية:

- قمر الصيادين؟

مدّ سكوت يده إلى علبة الملح وهو يلقي نظرة لاذعة على راوينا، فأحست بأن عنقها واقعة بين مخالب نسر... رد جاك ساخراً من التشبيه:

- راوينا صيادة؟ لا يمكن هذا. إنها من البشر... الآن أتقبل هذا الواقع! فهي على الرغم من مظهرها الطاهر مهمة بعمق بمصلحة الآخرين... هذا ما أظهرته لي قبل ساعة. أضف إلى ذلك أنها امرأة عصرية تزدرى الخرافات الدائرة حول عائلتنا.

قطع سكوت إجابة بطريقة حادة عمداً.

- لم أكن على علم أن منا أهل هذا البيت من يحتاج إلى اهتمام الأنسة هافرشام.

ثم أردف بتعالي السيد الذي يشغل نفسه بشؤون أتباعه:

- هل لي أن أعلم اسم السيء الحظ الذي أثار شفقتك؟ وما مشكلته؟

علق بعض الدخان المعطر المنبعث من الشموع في حنجرتها،

فعبزت للحظات عن الرد . شهقت ، تقاوم إحساس ضيق خائق .
- إنه . . . إنه ابن أخيك . . . لكن ، بعدما تحدثت إلى أبيه ، لا أرى
حاجة إلى إزعاجك بالمسألة .

اتسعت فتحات أنفه ، ووضع السكين من يده ثم مال إلى الأمام
لإضفاء المزيد من التأثير :

- أنا المسؤول عن تصرفات شؤون كل فرد في هذه الأملاك آنسة
هافرشام . . . إن جاك لا يحمل مسؤولياته الأبوية على محمل الجد ،
لذا إذا كان هناك من مشكلة تتعلق بالولد ، أن تسمح لي ببحثها معي .
اتجهت عيناها المذعورتان فوراً إلى جاك . . . ولكن ، رأس
الحصان الوحيد القرن ظل مطأطأ . . . ثم ، وكأنه أحس بحيرتها ، رفع
رأسه ولكن دون أن يكون في عينيه أثر للمقاومة :

- إذا كان الحال هكذا سكوت ، فمن الأفضل أن يكون ظهرك
عريضاً . فما دمت قادراً على وضع كل جرم يرتكبه شخص ما على
عاتقك فأتساءل كيف لك أن تنام ليلاً وأنت تفكر في الأضرار التي
سببها أحد موظفيك . . . ذاك الرجل الذي كانت عيوبه واضحة للجميع ،
إلا لك .

ارتفعت راوينا . ولكنه لم يذكر اسماً ، فلماذا يجتاحها الخوف ؟
ظهر البياض على عقد أصابع سكوت وهو يشد على جوزة وحين
انكسرت أحدثت صوتاً أجفلهما كلاهما .

قال سكوت :

- أعترف أنني مذنب بالنسبة للخطأ الذي ارتكبته في المسألة التي
تشير إليها . . . لقد زرع فينا ، ولأجيال طويلة عدم الثقة بإنكليزي ،
ولكنني للأسف تجاهلت النصيحة . . . مرتين !

أفرغ الجوز من القشرة ببطء ونظر إلى راوينا بحدة أحست معها
بأنه يطعنها .

- لهذا السبب ، ستجدني في المستقبل أشد حذراً وأكثر انتباهاً .
بشأن الثقة بالغرباء من أهل الحدود .

تسلل ريموس بحذر إلى مكتب راوينا في الصباح التالي وهو أشبه بكتلة صلبة من التوتر المرتجف، فعلمت أنه يسير على أرض محرمة عليه. نظر بقلق إلى باب المكتب المجاور... وقال همساً:
- آنسة هافرشام! متى أحصل على أمنيّتي؟
- اجلس لتتناقش الأمر.

- عليّ ألا أقعد فقد يدخل عمي سكوت.
- صحيح... إنما ماذا لو قعدت؟

- طلب مني البقاء بعيداً عنك قائلاً إنك موظفة وعلينا ألا نعاملك وكأنك فرد من أفراد العائلة... لا أفهم كيف أن مجرد التحدث إليك يجعلك من العائلة. ألا يجب أن يتزوجك عمي أولاً؟
- لا سمح الله!

أجفله ردها الشرس. لكن قبل أن يتابع كلامه أردفت:

- انسَ عمك سكوت الآن، لقد خرج إلى إحدى المزارع ولن يعود قبل موعد الغداء... أخبرني ما هي أمنيّتك؟ فإن كانت ممكنة أسعَ لتحقيقها.

عندما زال عنه خطر وجود عمه، صعد ريموس إلى الطاولة ليجلس عليها ثم انطلق بحماسة في شرح مشروعه...

- أرغب في رؤية عائلة هيلنغ مرة أخرى، أرجوك آنسة هافرشام. لم أرَ هذه العائلة إلا مرة واحدة وكنت سعيداً برؤيتها وقد وعدني عمي سكوت باصطحابي إليهم ثانية ولكن ليس لديه الوقت... لذلك إن

ضحكت لتوقف من حماسه:

- مهلك لحظة! والآن أخبرني ببطء أين تعيش هذه العائلة وكيف نصل إليها؟

- لست واثقاً بالضبط... في مكان ما من الأملاك لكن عمي يعرف أين تماماً.

- أوه... إذن، أنا آسفة ريموس لكن...

ظلمت عينيه غيمة أسي، فابتلع ريقه بصعوبة ثم انزلق عن الطاولة متوتراً بسبب الإحباط. قال وهو يكاد يبكي:

- الكبار لا يفون بوعودهم أبداً... ولكنني ظننت... ظننتك مختلفة.

ارتدّ بحدة وركض ليخرج، وكاد يغيب قبل أن يوقفه صوتها اليائس:

- ريموس... هل أنت متأكد أن عمك فقط يعرف مكان هذه العائلة؟ ألا يمكن إيجاد شخص آخر يعرف الطريق؟

- إنهم لا يخرجون إلا عندما يطلب عمي ذلك. فالجميع يخشاه. نظرت إلى جسده المتصلب، فأدركت أن خطوة واحدة أو كلمة خاطئة ستحطم ثقة الطفل بالطبيعة البشرية. يبدو أنه عانى كثيراً من الرفض في الماضي، وهي لا ترغب أن يضعها في صف الكبار الذين لا يعتمد عليهم.

- حسناً ريموس. سأحدث إلى عمك حالما يصل، إنما لا أعدك بشيء! سأبذل قصارى جهدي فقط.

- شكراً لك آنسة هافرشام. قولي لعمي إنني سأكون هادئاً وطيباً جداً جداً.

حين ركض مبتعداً، حاولت العودة إلى عملها... ولكن تفكيرها

رفض التخلي عن التفكير في هذه العائلة الخاصة، التي لا تتخلى عن وجودها إلا أمام شخص واحد. هم بالطبع لا يستطيعون رفض مقابلة السيد، لأنه صاحب الملك، وله الحق في دخول منازلهم متى شاء. مع ذلك فعزلتهم التي فرضوها على أنفسهم أذهلتها. . . فارتجفت تحس بالاضطراب والحيرة، لمجرد التفكير في الالتقاء بهم ولكن كيف ستطلب هذا المعروف من السيد.

لم تكد الفواتير تختفي من أمامها حتى وصل السيد ليعاين بنظراته تقدمها في العمل وكالعادة، تلقت تحذيراً مسبقاً أنبأتها غريزتها بوصوله قبل أن تسمع صوته. رفعت رأسها وإذا بها تراه واقفاً في الباب المفتوح، ينظر إليها عبر الفسحة الفاصلة بين مكتيهما، هذه الفسحة التي لا تنتمي إلى مكتب أحد منهما، والتي يكره كلاهما عبورها. - لدي بضع رسائل أمليها عليك، ولكن بما أنني أراك مشغولة بالعمل فسأعود لاحقاً.

على الرغم من كلامه اللطيف أحست بأنه يلومها فردت على الفور:

- أمليها عليّ الآن، لا أمانع. سأؤجل هذه التي ليس لدي سواها. أنا أعمل بسرعة تحت ضغط العمل. رد بجفاء:

- إذن، يجب أن أزيد ضغط العمل عليك دائماً.

تنحى جانباً لتمر به إلى مكتبه. . . وكان أن أملى ما أملاه بسرعة وحزم واختصار فلم يستخدم كلمتين حين تفي الواحدة بالغرض. فهو واثق مما يريد أن يعبر عنه ولا يحتاج إلى المراجعة أو التغيير ولا بكلمة أو بفاصلة. عندما انتهى كانت أصابعها تقبض على القلم بشدة لا شعورياً، لكنها تمسكت بجو الثبات، ولم تعطه ما يدل على راحتها التي أحست بها حين توقف عن الإملاء.

وقف متمتماً بطريقة كريهة:

- يجب أن يكون هذا ضغطاً كافياً آنسة هافرشام. وإن لم يكن أخبريني. - أوه. . .

كان التعبير المختصر كافياً لإيقافه عن التوجه إلى الباب فهي عادة كانت تسبقه دائماً بالعودة إلى مكتبها وتصرفها ذاك دليل واضح على مقتها لصحبته. أما الآن فارتفع حاجبه بتساؤل متعجرف:

- نعم؟ أليدي مشكلة؟

- أجل. . . لدي مشكلة. إنما لا علاقة لها بالعمل.

رد بلهجة ملؤها نفاذ الصبر:

- حسناً؟

أيها المتوحش المتعجرف!

التقط الرسالة التي أرسلتها عيناها، فالتوت شفتاه. . . فمن العسير التظاهر بالرضى عن رجل تمقته.

- بالأمس أجريت وريموس سباقاً خسرته.

- لا أستغرب ذلك فأنت تبدين من الذين يدعم الخاسرين دائماً.

تجاهلت سخريته وأردفت:

- وعدته أن ينال أمنيته إذا وجد والده أولاً. كنت أود التحدث إليه

بشأن ريموس.

- لا حاجة للأعذار. لا تهتمي بأسباب ملاحقتك لأخي. أفهم أن

ريموس تمكن من إيصالك له، وهو الآن يطالب بأمنيته!

- أجل وهنا يأتي دورك.

- أنا؟

- يريد زيارة السيد والسيدة هيلنغ وعائلتهما. ويصرّ على أنك

الوحيد القادر على إيصالنا إلى منزلهم.

أقسمت برهة أن بريق الضحك لمع في عينيه، قبل أن يطبق حاجبي النس، ليتفوه بما فيه هزء وسخرية:

- هذا صحيح... زرنا العائلة مرة، ولقد تكلم عنها كثيراً منذ ذلك اليوم. ولكن لسوء الحظ لم أتمكن من توفير الوقت اللازم للقيام بزيارة ثانية وهذه هي طريقة «السعدان» الصغير لإجباري. تنهدت براحة: «إذن ستصبحنا».

- بل سأصحب ريموس.

يعرف تماماً هذا المتوحش الكريه أنها تكره صحبتها! وقفت، وجسدها الوقور مشدود من جرّاء الإهانة التي تلقتها:

- هذا ما يناسبني تماماً... فليس لدي رغبة في التعرف إلى عائلة مضجرة أخرى من عائلات الحدود.

لكن ريموس لم يكن مستعداً لقبول التنازل، وأوضح رأيه بعاصفة بكاء حادة. في ذلك المساء سعى اللورد إليها وهو يقود الولد الثائر من كتفه، وقطع الغرفة وهو يعرج وتوجه نحو النافذة التي كانت تجلس عندها تتأمل الحديقة.

قال بجفاء:

- يبدو أننا اصطدنا بجذع شجرة يا آنسة... ريموس مصرّ على أن ترافقيه كجزء من المكافأة، وبما أن الرهان كان بينك وبينه، أشعر أن الأمر متروك لكما لحله.

تخلص ريموس من قبضة عمه، وأسرع إليها يجرّوها:

- أرجوك آنسة هافرشام، قولي إنك سترافقينا الآن، وفي هذه اللحظة... يجب أن نصل إلى هناك قبل حلول الظلام وإلا خرجوا! - خرجوا؟

ارتابت في أمر هذه العائلة التي تتجنب نور النهار وتحب التجول ليلاً. ونظرت إلى اللورد، فوجدت تعابير وجهه متحفظة... ولكنها

أحست بأنها مدينة للولد بالوفاء بالوعد.

- حسن جداً... سأحضر معطفي.

كانوا ثلاثياً صامتاً شقّ طريقه باتجاه الغابة، حيث أطبقت عتمة المساء عليهم وهم يسرون في ممرات صامته هادئة وكأنها دهايز مدفن في كاتدرائية مظلمة... سار ريموس بينهما ويدٌ صغيرة في يد راوينا، والأخرى في يد عمه. وجدت الشجاعة لتسأل:

- ألن يعترض هؤلاء الناس على زيارتنا في منزلهم دون دعوة؟

توقف ريموس فجأة، وكاد يفقدها توازنها:

- ناس؟ إنهم ليسوا...

قاطعته عمه بوقار متجههم:

- لا أحسبهم يدعوننا إلى العشاء.

فجأة تداعى ريموس إلى الأرض وهو كتلة ضاحكة فنظرت راوينا باستغراب إلى اللورد، وشاهدت أنه كذلك يجد صعوبة في كبح ابتسامته. رفعت الريبة رأسها لتسأل بعجرفة:

- أياحاول كلاكما التلاعب بي؟

بدأت فعلاً تحس بالغباء... فمن الواضح أنهما كليهما يتمتعان بإخفاء سر على حسابها. التقط اللورد ابن أخيه وأخذ ينفض الغبار عن ثيابه.

- نحن مضطران لإخبارها ريموس... أشرح لها أنت أم أشرح أنا؟

كان ريموس متعباً من الضحك، فلم يستطع الكلام، وكانت دموع الضحك تنحدر على وجنتيه، وضحكته الطفولية ترن كالجرس في الغابة الصامته... ولكنها حتى في تلك اللحظة من الإذلال رأت أن اللورد قد بدا أصغر عمراً عندما ارتدى وجهه مظهر الضحك:

- عائلة هيلينغ هي عائلة «غريرات» ومنزلها هو الجحر... وبما أنها حيوانات تنشط ليلاً فقط، فنحن مضطرون للجلوس خارج جحرها قبل

المغيب. فللغريز حاسة شم قوية، وإذا شم رائحتنا لن يخرج... إنه يعرف وجود الإنسان إذا مرّ في طريق يسلكه ومع أن نظره ضعيف، فأقل حركة تزعجه، لذلك يجب أن نبقي صامتين هادئين، لتمرّ قربنا دون أن نعرف بوجودنا.

حدقت راوينا إليه، تكره ابتسامته، ومع ذلك وبسبب مرح الموقف، لم تستطع أن تغضب.
- أوه... فهمت... بالطبع!

وبدأت تضحك... وسرعان ما أغرق الثلاثة في الضحك حتى أزعجت أصواتهم الطيور في أعشاشها، والمخلوقات في مخابئها. وما أدهشها أن لصاحب السعادة ضحكة جذابة. وهي في كثير من الأوقات كانت تحكم على الرجال من خلال ضحكاتهم وذلك قبل أن تعرف شيئاً عنهم... كان هذا التناقض محيراً لها... فهي تجد من المستحيل أن تغضب من شخص شاركته ضحكة.

كان اللورد أول الصامتين، وقال بوقار:

- أجد روحك المرحّة مدهشة آنسة هافرشام. مع أنني كنت أظن أن الإنكليز يفتقرون إلى هذه الميزة. لقد قال أحدهم يوماً إننا خلقنا في هذا العالم لنضحك، ففي الجحيم لن نستطيع الضحك، وفي الجنة الضحك غير ملائم.

مسحت راوينا عينها:

- إن هذا لصحيح!

ثم ولسبب مجهول لم تستطع إلا أن تضيف بلسان لاذع:

- ما زال أمامك أمل لورد كالدونيان. فحيث المرح توجد القدرة على التساهل.

- ناديني سايتون، فهو الاسم المفضل لدى الموظفين. أنا أكره الرسميات بمقدار كرهى لرفع الكلفة.

هزت رأسها، وقالت تحاول التهرب من موضوع الاسم.

- أخبرني المزيد عن عائلة «الغريز»! تبدو عائلة جذابة.

- أجل... إنها كذلك. وتستحق الجهد لرؤيتها... فحين نتغلب

على بعض الصعوبات، نستطيع دراستها عن كثب. لا أعتقد أن في الكون حيوانات مثيرة مثلها. سنصل قريباً إلى أحد الجحور... فهي تمكث عادة في الغابة ولكن يمكن إيجادها كذلك بين الشجيرات الشائكة وعلى ضفاف الأنهر. سيكون الدليل الأول على وجودها كمية كبيرة من التراب. ففي الربيع والخريف، تظهر أكوام من التبن أزيلت من الجحر لتستبدل بأخرى طازجة... إنها تستخدم الجحر نفسه منذ مئات السنين، وتمدد تحت الأرض كثيراً.

تدخل ريموس:

- الغريز نظيفة جداً آنسة هافرثام، وهي تنظف جحورها بانتظام...

بعضها يفضل العشب، والآخر يحب أغصان الشجر... إنها تحتضن كومة كبيرة بين قوائمها وتستلقي على ظهرها لتزحف نحو الجحر... لقد راقبتها تفعل ذلك في إيلول الماضي، أليس كذلك عمي سكوت؟
- اصمتا الآن. علينا من الآن فصاعداً أن نلوذ إلى الصمت.

كان أمامهم التراب كوماً كوماً... وممرات متقاطعة تقود إلى مكان غير محدد. تحرك الثلاثة بهدوء قدر المستطاع، ولكن فجأة أوقف اللورد راوينا وأسند ظهرها إلى شجرة، ثم كمن مع ريموس أمام دغل من الشجيرات وصمت الجميع بصبر ينتظرون.

مرت نصف ساعة، قبل أن تظهر الغريرات التي تعالي صراخها الحاد وقد ظلّ هذا الصراخ مستمراً فترة حتى ظهر الذكر الذي راح يشمّ الهواء بريية قبل أن يفسح الطريق أمام الأنثى، التي بعد أن اطمأنت إلى أن كل شيء على ما يرام، راحت تدفع جراءها إلى الخارج.

تسمّرت راوينا في مكانها مبتهجة. تراقب حركات العائلة... في

البدء تمتعت بحكّ جلودها بشكل مشير، ثم قررت الجراء أن تلعب . .
فراحت تقفز على بعضها بعضاً، تختبئ وتبحث عن المختبئ وتصرخ
بمرح وكل ذلك تحت أنظار أمها .

بعد ساعة كاملة أخذت الأجساد السمينة الرمادية القاتمة، ذات
الوجوه المخططة بالأبيض تختفي عائدة إلى الجحر . عندها أشار
اللورد إليهما بالبقاء صامتين فسار الثلاثة على أطراف أصابعهم حتى
وصلوا إلى الممر الذي يفضي إلى خارج الغابة، ولحظتئذ انطلق
ريموس بالكلام:

- ألم يكن هذا رائعاً آنسة هافرشام؟ ألم تحبي الجراء؟ إن عمرها لا
يتجاوز الثمانية أسابيع، وهي تتعلم التجول وحدها .
ردت حالمة، لا تريد أن تكسر السحر الذي يلفها بالإكثار من
الكلام:

- أجل عزيزي .

وكانما أحسنّ الاثنان بمشاعرهما، فعادوا إلى القصر بصمت،
صمت غير متوتر أو مقيد، بل حميم عميق تشاطروه بسعادة . وعندما
وصلوا إلى القاعة الكبيرة افترقوا وكان أن تطوعت راوينا باصطحاب
الصبي الناعس إلى غرفة نومه . . وعندما ارتدّ اللورد على عقبه إلى
مكتبه حيث ينتظره العمل، تمكنت راوينا من التلفظ بكلمات الشكر:

- شكراً لك لسماحك لي بالمشاركة في هذه التجربة الرائعة .
ارتفع رأسه وقد عاد إليه دور صاحب السعادة، المتعجرف الذي لا
يلين:

- أعتبر هذا تعويضاً عن افتقار القصر إلى أسباب التسلية العصرية
آنسة هافرشام . حتى ولو كان لتسليتنا هذه ميزة خاصة فمن سوء الحظ
أنك ستغادرينا قريباً . . فما لدينا من عروض تسلية هو موسمي كما
شاهدت . ولا يمكننا استعراضها كلها أمامك في شهر واحد .

ارتقت الدرج وهي تشعر بأنها تلقت المداعبة على خد، وصفعة
على الآخر . فذكرت نفسها بأنها تكره هذا الرجل وأنها تأمل من كل
قلبها أن ينتهي عملها في قصر كالدونيان، قبل انتهاء الشهر .

٧ - نبوة الشر

بعد مرور ثلاثة أسابيع، أصبح العمل في المكتب رتيباً بحيث اعتادت عليه، ولكنها لم تقترب من حل مشكلتها، ولا اقتربت من إيجاد طريقة للانتقام من صاحب السعادة.

كانت تدرس المسألة في الأوقات التي كانت تجد فيها بعض الراحة والتي ازدادت بعدما وثقت نعم الثقة بكفاءتها. فقد كان الرجل حصيناً جداً كقصره... فجسدياً كان محمياً بجيش من العمال الذين اكتشفت أنهم يضحون بحياتهم لأجله... أما معنوياً فكانت تحميه قوقته القاسية واكتفاؤه النفسي التام. ولم يعد لديها إلا أمل وحيد وهو اعتماده على مهارتها أكثر فأكثر... صحيح أنه لم يقل هذا إطلاقاً ولكن دلائل التوتر تلاشت عن عينيه وفمه، وأصبحت السرعة التي ينهي بها عمله أخف حدة... واللحظات التي يتوقف فيها للتحدث والمزاح مع الرجال باتت الآن من الظواهر اليومية.

لم يكن في نيته أن تخفف عنه حملة، ومع ذلك حصل ذلك. ولكن ما العمل وشهر التجربة يكاد ينتهي، فلم يبق أمامها إلا خمسة أيام لتعد خطتها.

كانت غارقة في التفكير والدرس حين قرع جاك الباب بخفة ليدخل ولكن ابتسامة الترحيب اختفت عن وجهها حين لاحظت عبوسه وقلقه.

- راوينا، هلاً أعطيتني بضع دقائق من وقتك؟

- أجل، طبعاً. هل حدث شيء؟

- أرجو أن لا. ولكنني لست واثقاً... إنه ريموس... تطلب ماريان ألا أقلق. ربما من السخف الشك في كلامها بعدما ربّنت سكوت وبعدها رعتنا في طفولتنا. موظفونا يعتبرونها كاهنة الحكمة بالنسبة لتشخيصها للأمراض. ولكنني رغم ذلك...
- أتريد رأيي؟

- لو سمحت. إنما أحذرك أولاً بأن ماريان لن ترضى. كانت قد زارت غرفة الصبي مرة من قبل، في ذاك اليوم صدمها الجو الرطب البارد الذي رآته في الغرفة. وها هي الآن أثناء دخولها إليها من جديد تشعر بوخز في ذراعيها اللتين راحت تدلكهما. كان جسم ريموس النحيل مختفياً في سرير ضخم، مدثراً بكومة من البطانيات الثقيلة. وكان رأسه الصغير ذو العينين البرّاقتين شديد الاحمرار، وقد بدا احمراره واضحاً أمام بياض الوسادة... وكانت ماريان تجلس تحيك إلى جانبه، وكأنها عنكبوت أسود ضخم، تحيك الفخ حول ذبابة عالقة في خيوطها.

ما إن شاهدتها الصبي حتى قال بصوت متحشرج:

- آنسة هافرشام، حنجرتي تؤلمي.

أسرعت إليه:

- حقاً حبيبي؟ لا شك أنك التقطت انفلونزا، وهذا ليس عجبياً!

استدارت غاضبة إلى جاك:

- أليست هناك غرفة مريحة أكثر من هذه؟

قبل أن يرد وقفت ماريان لتقول:

- كانت غرفة الصغار دائماً في البرج المستدير، وقد توارثها صبيان

سايون جيلاً إثر جيل.

ردت راوينا بخشونة:

- ليس عجبياً أن عاش منهم القليل.

تطلعت إلى النوافذ فلم تجد سوى نافذة واحدة لا تعدو أن تكون شقاً مستطيلاً وهو إلى ذلك عال وإن تجرأت الشمس على أن تنفذ، صدتها ستارة سميكة سوداء تهمس رسائل النحاس أثناء تمرغها على حجارة الجدران الخارجية. أما الأرض فكانت تغطيها قطع رقيقة مبعثرة من السجاد، على إحدى هذه القطع خزانة ثياب طويلة استقرت خلفها بقعة سوداء.

تقدمت نحوها: «ما هذه؟»

ثم ارتدت بعنف وهي تصيح:

- إنها رطوبة! الماء يجري فوق الجدران!

صاحت ماريان:

- ليس هناك سوى هذه البقعة... وهي هنا منذ سنوات طويلة.

تحرك جاك بقلق وقال متمماً:

- إنها على حق... كنت وسكوت نستخدمها لبل الطوابع... كي

نوفر على أنفسنا لعقها.

سوت راوينا وقففتها وقد راعها هذا الإهمال، وجعلها تتساءل كيف

بالله عليهم تمكنت أجيال آل سايون من العيش هنا. قالت بحزم:

- لو كنت مكانك جاك، لاستدعيت الطبيب... أنا متأكدة أنه

سيوافقني الرأي بشأن نقل الطفل إلى غرفة أدفأ، وبأسرع ما يمكن.

استطال عنق ماريان، وكأنها حية كوبرا على وشك الهجوم:

- طبيب؟ ما من طبيب داست قدماء قصر كالدونيان فطالما اعتنيت

بالمريض هنا، وهذا ما فعلته أُمي ومن قبلها جدتي!

تجاهلتها راوينا وصبت اهتمامها كله على وجه ريموس الصغير

المتألم منتظرة من جاك التكلم. لقد أعطته رأيها والقرار عائد إليه

الآن.

- أوه... ماريان لا أعتقد أن استدعاء الطبيب مرة واحدة يضر

بشيء. سأذهب لأتصل بالطبيب حالاً.

وهرع خارجاً وكأنه خائف من شجار وقع بين نسوة، وشعر

بالإحراج لأنه اضطر إلى تأييد جانب على آخر. حين أقفل الباب وراءه

تطلعت عينا ماريان وهما تقذفان الشرر إلى راوينا:

- كنت أعلم منذ دخلت هذا القصر أنك تقصدين الشر...

كان صوتها شريراً مخيفاً كالموت، فسبب جواً من الذعر مرّ على

وجه ريموس الشاحب:

- أتيت بهدف الأذية... أحسست بهذا فوراً... رأيك تقفين على

عتبة القصر وكأنك الملكة بوديسيا، ملكة القبائل الانكليزية التي ثارت

على الرومان، والتي سعت وراء أعدائها مقسمة على الثأر لما أوقعوه

بعائلتها... شاهدت بوضوح تام هالة الانتقام ترفرف على رأسك،

وشاهدتك تلعين شفتيك وكأنك تتذوقين أولى قطرات الانتقام

الحلوة. ولكنني لم أقلق، ولن أقلق الآن... فقدرتي على الرؤيا تقول

لي إنك وقبل مضي وقت طويل، ستغادرين وأنت تحملين مرارة الندم!

ارتجفت راوينا رغم إيمانها بسخافة ما تقول. أيمن أن يكون

للسحرة وجود؟ فقد تحدث الأمور ضمن هذا الجو الغريب حسبما

تكهنت العجوز. لكنها سرعان ما هزت رأسها تنفض عنها شباك

الخوف الذي رمته ماريان على أحاسيسها.

حينما وصل الطبيب تنفست الصعداء. كان شاباً يشغل مكان أحد

الأطباء المحليين. هذا ما أخبرها به عندما كان ينتظر أن ينضم إليه

ممرضات من المستشفى متخصصات في معالجة الأطفال. أرسل كلامه

المبهج للنفس ماريان إلى المطبخ تتمم بحق وتحذر من مغبة الثقة

بالهواة. قال الطبيب:

- يا إلهي، هل هذه غرفة أطفال أم زنزانة؟ ماذا فعلت أيها الشاب

لستحق عقاب التسمّر على آلة التعذيب؟

تخلص بحركة عنيفة من نصف ما دثر به ، ثم دس يده تحت الغطاء
الأول بحثاً عن معصم ريموس ، ورفعته :
- آه ! لا أرى أصفاداً !

أطلق ريموس ضحكة ضعيفة ، أما الطبيب فراح يفحص نبضه ، ثم
بدأ بلطف يفحص الإصبع الصغيرة المشوهة . كان قد أنهى فحص
الإصبع عندما دخل جاك :

- أنا والد ريموس . . جاك سايتون . وأنت دكتور . . . ؟

تبسم الطبيب :

- يونغ . . أي الشاب ، بالاسم والطبيعة كما أرجو .

- كيف حالك دكتور . . ماذا عن الولد . هل حالته خطيرة ؟

- لا . . . أبداً . . أسمح لي بكلمة . . . ؟

وأشار إلى الباب ، فقال جاك قبل أن تجلس راوينا قرب ريموس
على السرير :

- وأنت كذلك راوينا ! بما أن الطبيب هنا بناء على إلحاحك ، أظن
أنه من الأفضل أن تسمعي ما سيقول .

تأكدت من راحة الولد الشاعر بدوار قبل أن تلحق بهما إلى
الخارج ، وأحست بالفخر حين قال الطبيب :

- قبل أن أعطي أي تحليل ، يجب أن أجري له بضعة فحوصات
مخبرية ، إنما ذلك بعد أن تتحسن حاله . في هذه الأثناء ، وقبل أي
شيء ، يجب أن تنقله إلى مكان ملائم . يجب أن أعترف أنني وجدت
هذا الجناح اختياراً شاذاً لتربية الأطفال . إنه منقطع تماماً عن دفء
الشمس بسبب الأشجار التي تعزله عنها .

هز جاك كتفيه :

- إننا نتبع بكل بساطة التقاليد . وهذا الجناح مستخدم للأطفال قبل
وقت طويل من وجود الأشجار .

- إن هذا مثير للاهتمام !

فيما هما سائران في الممر راحت راوينا تنصت إلى الطبيب وهو
يتحدث إلى جاك باستغراب :

- أنا مهتم جداً بتاريخ المنطقة سيد سايتون ، وأجد تقاليدها
وعاداتها ساحرة . أنا من «غلاسكو» لذلك أراني لا أفهم القصور
والأملاك الواسعة وتقاليد الحدود . . .

قررت راوينا أن غرفة ارتداء الثياب الملحقة بغرفة نومها ستفي
بالغرض ، فهي مناسبة لإقامة ريموس فيها . إنها صغيرة وغير معزولة ،
وبما أنها في مؤخرة القصر فهي تتلقى أكبر قدر من حرارة الشمس . .
أما السرير المفرد الصغير فيتسع للصغير الذي سيبدو فيه وكأنه فرخ بط
داخل عشه والأهم من ذلك أنها هي نفسها موجودة قرب لمساعدته إذا
أراد شيئاً خلال الليل .

نسيت تماماً واجباتها الأساسية المهجورة في المكتب ، وبدأت
تنفض الغبار وتعيد ترتيب الأثاث . . وكانت قد أنهت عملها حين
سمعت وقع أقدام ثابتة ومسرعة في الممر ، ترافقها رنة عرج .

توترت غريزياً توتر أرنب يشعر بصائده .

هاجمها بسرعة النسر حالما وقع نظره عليها :

- آنسة هافرشام ! لماذا تركت المكتب بدون عناية والهاتف بلا من
يجيب عن المكالمات ؟

ارتفعت يدها إلى فمها ، واتسعت عيناها العنبريتان بعدما أدركت
خطورة إهمالها .

- أوه ! أنا آسفة . . . ! كان يجب أن أجد من يرد على الهاتف . لكن
الأمور تسارعت فنسيت .

- أي نوع من الأمور ؟

في تلك اللحظة لاحظ منفضة الغبار في يدها ، ثم لاحظت عيناها

المتسائلتان الحائرتان بقعة غبار على أنفها والمندبل الأصفر اللمّاع على شعرها.

- لماذا تقومين بتنظيف البيت . . هل ماريان مريضة؟

- لا . . ليست ماريان المريضة .

انتزعت المندبل، وهزت رأسها لتطلق العنان لشعرها فقال نافذ الصبر:

- من إذن؟

- ريموس . . اضطررنا إلى استدعاء طبيب . . لا تقلق، لا شيء خطير . . مجرد رشح وقد اقترح الطبيب نقله إلى غرفة أدفاً لذلك فكرت . . .

- يبدو أنك تفكرين كثيراً فينا مؤخراً آنسة هافرشام . . هل في نيتك أن تجعلي من نفسك ضرورة لا نستغني عنها، أم أنك فضولية بطبعك؟ ارتدت عنه غاضبة:

- كنت أنفذ أوامر الطبيب لورد كالدونيان . . ولكن إذا كان هذا رأيك . . فخذ!

رمت المنفضة إلى قدميه وأكملت:

- قم بالعمل بنفسك! من الآن وصاعداً لن أقوم إلا بالعمل السكرتيري . . وإذا احتجت إلى أي مساعدة من نوع آخر فعليك أن تتوسلني!

بدا راضياً:

- جيد . . بما أنني لا أطلب منك منة أو معروفاً آنسة هافرشام عليك متابعة العمل الذي وظفتك من أجله، واتركي أمر إدارة المنزل إلى من هم أكفاً منك.

صاحت به، وقد مسّها عدم امتنانه:

- تعني ماريان كما أعتقد؟

- بالضبط . . كيف تجرؤين على المساس بمركزها واستدعاء الطبيب؟ لم نحتاج نحن السائتون بفضل مهارة ماريان ورعايتها، ورعاية أسلافها، إلى طبيب.

بدت عليها دلائل الدهشة وعدم التصديق:

- أبداً؟ أتقول لي لورد كالدونيان، إن عائلتك منذ أجيال قابعة في

جهل مطبق جعلها تضع صحتها وصحة أطفالها بين يدي امرأة عجوز

معتوهة تملأ رأسها الخرافات؟ قل لي . . حين كنت وذاك صغيرين ألم

تعرضا للأنفلونزا، أما أصبتما بحمى وأنفلونزا كحال ريموس الآن؟

- مرات عدة. إن ماريان كانت تشفينا من هذه الأمراض البسيطة

بوضع زجاجات الماء الساخن على أجسادنا والإكثار من الأغذية ومن

الشراب الساخن.

عندما ترسخت فكرة الكلام الذي قاله في ذهنها، ظلت وقتاً طويلاً

صامته حتى نفذ صبره:

- إن أنهيت إمعانك بي، أسمحين بنزع هذه النظرة البلهاء عن

وجهك والعودة إلى المكتب؟ تركت لك شريطين سجلت عليهما

رسائل أريدها مطبوعة، وجاهزة للتوقيع بعد ساعة.

- ولكن ماذا عن ريموس الذي سيستيقظ عما قريب؟ إن الطبيب

طلب نقله من البرج المستدير، في أسرع وقت.

صاح ببرود:

- سيبقى الصبي حيث هو.

- لكنك لا تستطيع مخالفة نصيحة الطبيب، وإن خالفته كان ذلك

غباء إجرامياً.

أشاحت بصرها عن وجهه الكريه وهي تشعر بالغضب يتطاير

كالصواريخ وما ذلك إلا لأن معاناة الطفل ستطول بسبب تصرفات رجل

مجنون، مصمم على تنفيذ ما يريد. صاحت به:

- بربري حدودي! لن ترضي نفسك حتى يصبح الولد مقعداً مشوهاً
مثلك!

حالما انطلقت الكلمات المربعة أحست بالخجل المرير. أما هو
فبدا على وجهه النحيل الصدمة. ما من رجل يبدو كما تراه في هذه
اللحظة إلا بعد طعنة خنجر أو طعنة سيف مؤلمة، ومن المستحيل أن
يبدو كذلك بسبب لسان امرأة.

شدّ يديه حتى ابيضت مفاصل أصابعه فعلمت راوينا أنها تمادت
كثيراً. وقررت الفرار وكادت تنجح حتى مدّ يده بسرعة مذهلة وأمسك
كتفها ليدفعها ثانية إلى الغرفة، فوقعت على ركبتيها فوق الأرض،
وراقبته برعب وهو يركل الباب قبل أن يتقدم إليها لترفعها يدها
الساحقتان من كتفيها حتى تقف مستقيمة. كانت أصابعه الطويلة
القاسية تحفر لحمها الطري، وتنغرز بلا رحمة.

كانت هذه الحركة الاتصال الجسدي الأول بينهما، فصدمتها
لمسته وأرسلت الرعدة إلى أوصالها ملاعبة شبكة أعصابها خانقة
أنفاسها.

- لقد حذرتك مما قد يحدث لو أصرت على تحدي سلطتي، ألم
أحذرك؟ يروقني عنادك آنسة هافرشام. لا شيء أحب لي من ترويض
ما هو غير مروّض ومن تعليم الجواد الأصيل حتى يحني ركبتيه. ومن
تدريب الصقر حتى يذعن على معصمي. ومن تعليم المرأة المقاومة
من أجل لمسة مني. وهذه الأشياء جميعها تمتعني!

كانت قوة الأسد في قبضته وهول النسر في انحناء رأسه. أخفض
رأسه شيئاً فشيئاً حتى شاهدت رعبها منعكساً في عينيه. تمتم مقرباً
أكثر:

- آسف لأنني خيبت ظنك بتكريس نفسي للعفة. أنا لست براهب
آنسة هافرشام، بل أنا ككل الرجال حين أثار أعرض!

أثبت كلامه بالانقضاء عليها فراح يتذوق صفاءها بوحشية
متعمدة، مجبراً إياها على التجاوب، ليحصل على أقصى سعادته بأخذ
ما كافحت طويلاً لتكبحه. . . . اكتسحتها قشعريرة هائلة، أهي احتجاج
أم ضعف؟ لكن لم يكن لديها وقت لتحلل الأمر فقد استمر الإغواء
مدنساً معه براءتها، مقتحماً أماكن سرية في قلبها، جسداً وروحاً.
عارضاً أمامها تقنية متفوقة جعلتها تحس أن هفوة واحدة من إرادتها قد
ترميها إلى هوة أحاسيس النساء.

كانت مقطوعة الأنفاس ومع ذلك، أحست بالصدمة حين ابتعد
عنها، وقد ماتت الشعلة المتوحشة من عينيه، لتترك وراءها دخاناً
خطيراً. . . . بدت الصدمة عليه أيضاً حين همس في أذنها.

- أيتها الساحرة الفضية، هل أرسلت إلى هنا لزيادة عذابي؟
ورماها بخشونة عنه. فترنحت تنظر إليه بكراهية، ولكنها لم تلبث
أن تعمدت مسح فمها بظاهر يدها مظهرة القرف في عينيه أيضاً. . . فقال
ضاحكاً:

- هل كرهت عناقي لك إلى هذه الدرجة؟
- أنا أكره المعاملة الخشنة، خاصة على يد. . . يد. . .
- عاجز؟ يسرني أن تجدي عناقي هذا مقرفاً. فعلى المرء أن يتأكد
من أن العقاب يساوي الجرم.

رفع يده بتحية ساخرة وارتد على عقبه منصرفاً. ظلّت بلا حراك
وقتاً طويلاً تنتظر فيه أن تهدأ أعصابها المتقدمة وأن تبرد أحاسيسها
المشتعلة. وبعدما هدأت قليلاً قعدت على كرسي شاعرة بالعزاء بسبب
المعلومات التي كشفها لها عدوها عندما هاجم دفاعاتها.

إنه معرض للخطر مهما ظن نفسه منيعاً، فلديه ضعف الرجال،
وإحساسه بقرب المرأة يثيره، وشعوره بالبشرة الناعمة والشفيتين
المرتجفتين يعذبه.

ها هي الطريقة الفضلى لتنفيذ انتقامها الذي ستوجهه إليه بالتظاهر
بالرغبة فيه حتى إذا ما أيقن أنه كسب المعركة تقلب الطاولات على
رأسه السلتي البربري!

٨ - أجنحة الحب

فتحت راوينا الرسالة بدون تفكير . . كان يجب أن تنفصل هذه عن
الرسائل الأخرى قبل أن تصل إليها، وليس حتى تفتحها لتعرف أنها
رسالة خاصة . كانت الكلمات الملتهبة في مقدمتها السبب في الإسراع
إلى طيها ثانية وإعادتها إلى المغلف : «حبيبي سكوت!» .

جعلت الكلمات قلبها يخفق وأنفاسها تنقطع . أمسكت الرسالة
بدهشة بين أصابع مرتجفة، أما سبب دهشتها فجراحة أية امرأة على ادعاء
صلة حميمة مع رجل قلبه من حديد .

سحبت نفساً عميقاً، قبل أن تشجع نفسها لتقرع الباب المؤدي إلى
مكتبه . إنها المقابلة الأولى بينهما بعدما حصل في الأمسية السابقة . .
كان رأسه الأسود الشعر محنياً فوق كومة من الأوراق، ولكنه ارتفع
بحدة حين كلمته بلهجة عذبة لا تفضح شيئاً من التقلص الذي أصاب
معدتها، أو من الضعف الرهيب الذي حلّ في ركبتها .

- سكوت . . أرجو أن تسامحني . . لقد فتحت هذه الرسالة خطأ .
تجاهل يدها الممدودة، وركز عينيه السوداوين على وجهها،
وكأنه قادر على اكتشاف السبب الكامن وراء تقدمها الودي غير
العادي . لم تجد صعوبة في جعل وجهها يتضرج حياءً أو في ادعاء
الارتباك والخجل . ولكن الجزء الأصعب كان إخفاء الكراهية التي
كانت تلمع في عينيها الصادقتين وعرفت أنها نجحت حين ابتسم
ابتسامة مغرور ساحر :

- لا بأس في هذا . . راوينا . . ربما هي رسالة من إحدى عمّاتي

أظهر تركيزه على لفظ اسمها قبولاً بأن يستخدم اسمه . . . وكان عليها أن تجبر نفسها على عدم الفرار عندما ارتدت على عقيبتها لتخرج . . . كان قلبها يخفق بعجنون ، وكانت الدماء تخضب وجنتيها بحمرة الخجل والعار . . . ما هذه اللعبة الغبية التي بدأتها؟ وكيف ستنتهي؟

- مهلك لحظة راوينا .

أحست بأن قدميها التصقتا بالأرض عندما أطاعت أوامره . انتظرت حتى وصل إليها . . . وما أذهلها وأرعبها إحاطته لها بذراعيه وهو يشرح لها قائلاً:

- هذه الرسالة من سيبيل ، زوجة جاك .

"حبيبي سكوت!" ما زالت الكلمات مطبوعة في رأسها . . . وتابع:

- لقد دعت بطريقتها المتهورة بعض الأصدقاء للانضمام إليها في العطلة هنا . . . الآن فقط ، وبعدما فعلت ما فعلت ، فكرت أن من المناسب أن تكتب لتسأل عما إذا كانت الزيارة مناسبة .

لم تكذ تفهم ما يقول لأن عقلها كان مشغولاً بأمور أخرى : مشغولاً بالطريقة المتملكة التي يمرر بها يده على كتفها ومشغولاً بغمرة عينه التي أفهمتها أنه لم يقع بعد ولكنه قرر اللعب حتى تتوقف اللعبة عن إثارة . . . شهقت قائلة:

- هذا أمر رائع لك . . . لجميعكم . خاصة ريموس . . . لا شك في أنه مشتاق إلى أمه كثيراً .

خفّت توتر أعصابها حين ابتعد عنها عابساً:

- الصبي لا يعي وجودها تماماً . . . سيبيل جذابة جداً ، امرأة مذهلة ولكنها خالية من مشاعر الأمومة . لا . . . إن كان هناك من

سيرحب بها فليس ريموس طبعاً .

فجأة أحست بالقلق على جاك ، فسألته بحدة:

- وماذا عنك؟

بدا دهشاً:

- أنا؟ أوه . . . فهمت . . . لقد أخبرك جاك بعلاقتي القديمة بها

ولكنني في الواقع لا أعترض على مجيء سيبيل إلى القصر متى شاءت ،

بل أنا أرحب دائماً بزوجة أخي . إنما هناك عقبة واحدة . . . فسيبيل تقول

إنها تنوي المجيء إلى القصر قبل ضيوفها بأيام لتمهد لهم الطريق

ولأنها لا تتفق أبداً مع ماريان ، أتساءل عما إذا كنت تمانعين في أن

تساعدوها؟ سيبيل رائعة في تنظيم الحفلات ، وأنا واثق أنها تريد تنفيذ

شيء ما أثناء وجودها عندي وحتى أكون صادقاً أقول إنني أهوى أن

يرفل هذا المكان القديم بحلة فاخرة مرة أخرى . . . أريد منك أن تري

القصر كما كان على عهد والدي اللذين كانا يستقبلان الناس دائماً في

القصر حيث كانت تصدح فيه الموسيقى ويرقص فيه الراقصون تحت

الثريات المشعة المضيئة سحراً إضافياً عندما تشع على المجوهرات

والحرير الناعم وعلى النار الزرقاء . . . نعم . . . لقد عملنا طويلاً

وجاهدين في قصر كالدونيان ، ويجب أن نأخذ قسطاً من الراحة . . . ما

رأيك راوينا . . . أترغبين في المساعدة؟

جعلها نطقه اسمها تخجل فتمتمت:

- أجل . . . سأفعل ما أستطيع .

لم يظهر ريموس رغم تحسن صحته حماساً يذكر عندما سمع أن

أمه آتية بل قال لراوينا إنه سعيد لوجوده في الغرفة المجاورة لغرفتها .

- أفضل أن أكون معك راوينا . . . أمي لا تلازمي كثيراً حين تكون

هنا ، بل تحدث الضجيج ، وإذا حاولت محادثتها تطلب مني الابتعاد

عنها . هي ليست مثلك . . . أنت لطيفة . لماذا لا تتزوجين عمي سكوت

فتمكثين معنا إلى الأبد؟

وبخته بعناد:

- كفّ عن هذا!

عندما رأت تعابير وجهه البائسة، عذّبها ضميرها فقد كان صوتها أكثر حدة مما قصدت... ولكنها كانت قد أصبحت أكثر من حساسة حتى لمجرد ذكر اسم عمه! طبعته قبلة على جبينه:

- نم يا حبيبي. كلما أسرعت في الشفاء تمكنت من الذهاب إلى المدينة. يريد الطبيب يونغ أن تزوره في عيادته، أتذكر... وأريدك أن تكون في صحة جيدة لتجول بي في المحلات الموجودة هناك حين نذهب.

- أعدك أنني سأكون في صحة جيدة. ما زالت حنجرتي ملتهبة قليلاً جداً ولكنها غداً ستكون أفضل حالاً.

- فلنمهلها حتى آخر الأسبوع لنثق أكثر بشفائها.

مرت بجاك أثناء توجهها إلى المكتب فرأته يذرع القاعة الكبرى وهو ساهم... وكان عليها أن تبسم لشبهه الكبير بابنه الصغير.

- مرحباً جاك، لم كل هذا التجهم كله؟

لم يرد الابتسامة: «ألم تسمعي الخبر؟»

- خبر قدوم زوجتك؟ ألسنت مسروراً؟

- ولماذا أسر؟ إنها تأتي فقط من أجل أن تكون قرب سكوت.

- آسفة جاك... إن هذا مؤلم حقاً لك... أليس هناك فرصة للعودة؟

- ما دام أخي غير مرتبط فمستحيل. من المؤلم الوقوف جانباً لمراقبة المرأة الوحيدة التي أحببتها، أم ابني، ترمي نفسها على رجل آخر! ولكنني لا أستطيع لوم سكوت، فهو لم يشجعها قط. فم منذ زواجنا كان تصرفه معها صحيحاً، بل فلنقل إن اهتمامه كان اهتمام العمّ

بزوجته ابنة... ولكنها لم تتخلى عن الأمل بأن يغيّر رأيه.

- إن هذا أمر محبط لكليكما... لكن ربما كان الأمر هذه المرة مختلفاً.

- ربما... إذا طارت الأفيال. ولكن إن أظهر سكوت اهتمامه بامرأة أخرى... فسيردعها ذلك... سيبيّل مقاومة، لكنها عملية، إذا أصبح ما تريده خارج منالها اقتنعت بما يليه. لقد حدث هذا مرة، ويمكن أن يحدث ثانية...

كان كمن يركل حجراً خيالياً فوق الأرض... فتركته لتسرع إلى مكتبها، تتساءل لماذا سمحت لنفسها أن تتورط إلى هذا الحد بشؤون عائلة لا تشفق عليها شفقة حقيقية. إنها عائلة أفرادها متعجرفون، مغرورون معتادون على الافتخار بأنفسهم منذ الولادة وعلى رمي الأوامر، لا على تلقيها. فلماذا تشعر بالأسى على مشاعر أحدهم؟ إنها آسفة أسفاً صممت معه على فعل ما باستطاعتها لمساعدته!

دخلت مكتب سكوت، يساعدها قلبها المتطاير إشفافاً على جاك، وانطلقت تتهجم عليه:

- لقد تركت جاك منذ هنيهة. إنه متكدر جداً بسبب زيارة زوجته، وأظن أن من المخزي أن يعاني لعلمه أنها قادمة من أجلك أنت فقط! بإمكانك مساعدته لو جعلتها تدرك أنك لا تهتم بها. ولكنك عوضاً عن ذلك تشجعها! لا تنكر! قرأت عنوان رسالتها بدون قصد طبعاً... لكن...

- ولكن عقلك قفز إلى استنتاج خاطيء!

أرجع كرسيه إلى الخلف لينظر إليها بإمعان.

- ترى هل شعرت بالغيرة؟ راوينا؟ لقد كان الطريق أمامك فسيحاً خالياً حتى الآن مع رجلين حساسين جداً. ربما لا تروقك فكرة مشاركتنا مع امرأة أخرى؟

تذكرت في الوقت المناسب دورها الذي تبنته ، فأخففت عينيها ،
ورمشت بأهدابها بطريقة أنيقة ثم همست :

- أنا... ألا يحق لي أن... أغار؟

شدت على أسنانها غيظاً وقد أحست به يقترب ، وانتظرت . وقف
على مقربة شديدة منها ولكنه لم يلمسها . . حين تكلم بدا كلامه مشبعاً
بغضب ساخر :

- كما سبق أن قلت لك . أنا لا أسمع لأية امرأة بالمطالبة بحق
عندي . إن أقصى ما أنا مستعد له هو عبث بسيط لا ارتباط فيه .

حين رفعت إصبعه ذقنها رآته عابساً :

- لا أراك ممن يسيطر على مشاعره . أتعرضين مشاعرك دائماً بمثل
هذا التهور؟ ألهذا السبب حضرت إلى هنا من المجهول بدون كتاب
توصية أو تعريف؟ أكنت هاربة من مشكلة عاطفية ما كان يجب أن
تحدث؟

- لا!

كان نكرانها السريع احتجاجاً لا بد منه ضد اتهاماته ، ودفاعاً ضد
التواء شفثيه المزدرتين لها ، ثم هزت كتفيها . . فماذا يهمها رأيها؟
ذكرها صوت داخلي صغير هامساً : « بل يهم كثيراً . . هذا إن أردت
فعلاً خداعه ! »

ولكنها حتى من أجل هوارد غير مستعدة إلى أن يظنها المركيز
عابثة ، فكان أن قالت كحل وسط :

- لا يد لي إذا وجدني الرجال جذابة . . فلم أقصد أن ألفت
انتباههم .

أدهشها رده :

- أصدقك . ولكن تصرفك البارد الذي يقول للرجل « لا تلمسني »
هو ما يشير اهتمام الرجال ولكن هناك استثناء . . بالأمس مسحت

وجهك وفمك بعد معانقتي لك ، واليوم تلمحين إلى أنك لن تنفري بعد
الآن . . . فأبي الموقفين أصدق؟

أحست بتوتر شديد لاضطرارها إلى النظر مباشرة في عينيها ، وإلى
القول كذباً :

- كان تصرفي بالأمس ردة فعل طبيعية تبدر عن امرأة تُحتضن
بالقوة . . . ولكنني رغم ذلك أحسست إحساساً رائعاً ، إحساساً لم
أتمكن من نسيانه .

همس لها :

- إحساساً جميلاً . وكأنما أحدهم أعطاك أجنحة فجأة؟ يسمي
بعض الناس هذا الإحساس حباً . . راوينا . فماذا تسمينه؟

حدقت إليه وكلها أمل ألا تكون معاناة قربها منها وخطورة لمسة يده
وتهديد فمه المقترب منها حملاً تحتمله بدون مقابل . . قالت متوسلة
وهي ترتجف :

- أنا . . أنا لست واثقة . . فلنتظر قليلاً . . ولنعط أنفسنا وقتاً
لنعرف .

تمتم :

- الوقت يُشفي الإنسان من كل شيء ، حتى من حياته . ربما أنت
على حق .

عندما سمعت دقة خفيفة على الباب شعرت بالراحة فأسرعت تفتح
الباب وهناك وجدت أحد العمال :

- أسمحين يا آنسة بالقول للسيد إن زوجة أخيه وصلت وهي تسأل
عنه؟

صاح سكوت :

- ماذا؟ أبهذه السرعة؟ . . اللعنة!

كان يمسك بمرفقها بقوة وهو يقودها إلى مقدمة القصر حيث

كانت سيارة صغيرة تقف أمام المدخل . كان جاك هناك يفرغ الحقائب من الصندوق ، وفتاة تنكئ بلا اهتمام إلى عمود حجري مبتسمة بنفاذ صبر .

- كن محترساً جاك . . . إنها جديدة !

جاء صوته من عمق الصندوق :

- يا لها من حقيرة لعينة . كيف وضعتها هنا ؟ ألم يكن بإمكانك إرسال بعضها منها في شاحنة ؟

- حبيبي . . . لقد وصلت لتوي من أوروبا ، منذ يومين فقط . ولم أزعج نفسي بإفراغ الحقائب . . . لا شك أن بعض ملابس مشعثة ، ولكن أليس ما تزال هنا تترأس فرقتها من النساء الممتازات ؟

- لفرقة نسائها الممتازات عمل أهم بكثير من كي ملابسك . . . لماذا لا تحاولين القيام ببعض أعمالك بنفسك حبيبتني ؟ لا بد أن تجدي عملاً تستطيعين القيام به بدون أن تتسخ يديك الورديتين البيضاءوين .

ارتعبت راوينا فقد كانت كلماته مشحونة بالسخرية ، فكيف بالله يمكن أن تعود المياه إلى مجاريها وهو يصر على تصرفه هذا معها ؟ وذلك قبل أن يحصل شرخ في علاقتهما يعجزان عن إصلاحه .

- سكوت . . . حبيبي . . . !

كانت عينا سيبيل اللامعتان بالبهجة مسمرتين على وجهه ، وكأنهما تودان استيعاب كل تعبير من تعابيره ، وكل جزء بسيط من مظهره : طولُه ونحوه ومشيته الواسعة المستعجلة قليلاً ورأسه الأسود المتفاخر ، الذي تضيئه الآن بسملة الترحاب . هرعت إليه بذراعين ممتدتين متجاهلة يده التي مدها للمصافحة رامية نفسها عليه ، لاقه ذراعيها حول عنقه ، معانقة إياه بلهفة وشوق حتى شعر جاك وراوينا بالإحراج . كان من الصعب معرفة من تخلص من الآخر أولاً . . . ولكن سيبيل بدت مترددة تكره الابتعاد فتعلقت بذراع سكوت غير مهتمة أبداً

بالآخرين . . . وقالت :

- لماذا لم ترد على رسائلي ؟ كنت أرسلك مرة في الاسبوع ، ولم أتلق منك إلا رسالة قصيرة كتبتها على عجل .

- كنت مشغولاً .

أحست راوينا بالغضب بسبب لهجته المتسامحة . . .

- مشغولاً حتى عني ؟ لن أصدق هذا سكوت !

قاطعها جاك وهو يستشيط غيظاً :

- وماذا عن رسائلي لك يا زوجتي الحلوة ؟ ما هو العذر الذي لديك

لعدم الإجابة عنها وعدم الاهتمام بصالح ابنك ؟

- أنت معه . . . أليس كذلك ؟ لماذا يفترض الجميع أن حمل الطفل

في أحشاء امرأة يورث بشكل آلي مشاعر الأمومة . أنا . . . لم أعرف أمي

يوماً . ومع ذلك عشت ! لكن والدي لم يكن يوماً ظلاً لرجل آخر !

غطت على شهقة راوينا الغاضبة احتجاجات سكوت الحادة :

- ألا يمكنكما التوقف عن المشاحنة ولو لدقيقة ؟ ريموس لما

يستعد صحته . سيبيل ، إنه ما زال في فراشه ولكنني واثق أنه يتوق إلى

رؤيتك .

تركزت عينا راوينا على وجه سيبيل . . . فأذهلها جمالها ولكنها

أحست بالكره بسبب أنانيتها عندما قالت سئمة :

- أيجب أن أهرع إليه الآن ؟ لقد انتظرت طويلاً حتى أتحدث إلى

سكوت . . . فلندخل إلى مكتبك حيث نجد الراحة .

توسلته عيناها الزرقاوان وهي واقفة كعارضة أزياء تشمخ برأسها

الذي حركت الريح خصلات شعره وألصقت الفستان بثنايا جسدها

الرائع . كانت تعي التأثير الذي تلقيه على الرجلين معاً .

لم يدل صوت سكوت الكسول المتشدق بنعومة ، على القنبلة التي

كان سيرميها :

- قبل أن ندخل .. أريد أن أقدمك إلى عضو في منزلنا ..
راوينا .. راوينا أريد أن تلتقي بـ زوجة أخي سيبييل .
هزت سيبييل رأسها بكسل ، ولكن البسمة اعتلت وجه سكوت
عندما أردف :

- سيبييل .. هذه راوينا هافر شام .. خطيبتني !

* * *

٩ - هل تنتهي اللعنة؟

كانت ممتنة ومصدومة من الحل الذي ابتكره سكوت لحل مشكلة
سيبييل ، ولكنها مع مرور الأيام لم تجد سهولة في تقبل ذراعه الملتفة
بحب حول كتفها ، أو في احتمال نظرات هيامه حين تكون معهما
سيبييل التي ما إن تغيب عنهما حتى يعود إلى طبيعته ، ورغم ماثرتها
على نزع سلاحه كانت تشك في أنها تتقدم بسرعة إلى أي مكان .
ولكن وصولها إلى لعب دور خطيبة سكوت حقق بعض النجاح ..
فلم تعد تحرشات سيبييل وقحة صريحة ، مع أن عينيها بقيتا تنظران إليه
بجوع وصوتها ظل يداعبه ، لكن آثار العاطفة الأخرى كانت مقيدة ولو
مؤقتاً ، فسيبييل كما ترى راوينا لم تنخدع تماماً ، وكانت تختار توقيتها ،
كي تقنعه أن التحالف غير المتناسب لن يطول .
تأكدت مخاوف راوينا بعد مرور يومين ، حين توقف سكوت يوماً
عن الإملاء لها ليقول :

- يجب أن نحضر لك هدية الخطوبة .. كانت سيبييل تطرح أسئلة
ذات مغزى ، ولعلها عندما ترى ما يدل على صحة خطوبتنا تزول
شكوكها .

رفعت راوينا رأسها ، وقد وجهت القلم في يدها بطريقة متوترة .
- بكل تأكيد لا أرى حاجة للمضي في هذه التمثيلية إلى هذا الحد؟
- بل هناك حاجة . وأنا أرى أن من المستحسن أن تحصلي على
بعض مجوهرات العائلة حين ترحلين لتكون ذكرى ، أم تفضلين أن
يبقى الأمر ذكرى مربكة بسبب ما كان يمكن أن يحدث؟

احمر وجهها بشدة ولكنها تمكنت من ابتلاع رد عنيف مذكرة نفسها بأن سيبيل ليست الوحيدة التي يجب أن تتخذه، فكان أن تبنت تعبير من جرحته مشاعره عميقاً.

- أنت قاس سكوت... لماذا لا تثق بي إلى هذا الحد؟

أطلق ضحكة ساخرة وفيما كان يعمل، راحت أصابعه تعبث بشعره، فتساقطت على جبينه خصل سوداء أعطته مظهر شاب خليع.
- أتجروين على السؤال؟ أنت امرأة ذات ماضٍ وأنت إلى ذلك إنكليزية.

كانت هذه هي الفرصة التي انتظرتها طويلاً وبصبر، فعندما سألت عن آخر شخص إنكليزي عمل في القصر، أجاب جاك بهزة كتف لا مبالية:

- آخر مساعد لسكوت ترك العمل وهو موضع نقمة... يومذاك كنت غائباً... ولم أسمع سوى شائعات.

ثم سألت سكوت بحذر:

- لماذا تكره الإنكليز هكذا؟ أليس هناك الطيب والفاقد في كل الأعراق؟

- بكل تأكيد... ويمكنني تعداد بعض أصدقائي الإنكليز الجنسية ولكن بعد دراسة حذرة لأخلاقهم، وبعد الاطلاع على تاريخ عائلتنا تبين لي إلى أي مدى قد يكون الإنكليز منافقون وإلى أي مدى قد يصلون في انتقامهم.

ذعرت داخلياً ومع ذلك تجاهلت همساً داخلياً يحثها على الحذر، وتابعت:

- وماذا عنكم يا أهل أسكتلندا؟ وماذا عن إصراركم على إبقاء الحياة لمآسي الماضي؟ أليس من الأفضل دفنها مع أمواتكم؟

ضاق عيانه، فظنت في لحظة ذعر أنه فهم أن اهتمامها شخصي لا

موضوعي. بدت عيانه تنبشان في عمق روحها وهو يرد عليها:
- كنا لنفعل لو سمح لنا. ولكن لسوء الحظ، العيوب التي وضعتها في لائحة موجودة اليوم في الطباع الإنكليزية كما كانت تماماً منذ قرون... في الواقع... مؤخراً...

صمت فجأة وكأن ذكرى سيئة أزعجته:

- ولكن، يكفي، تلك المسألة لا تستحق النقاش... تعالي إلى مكتبي متى كنت جاهزة. في البلدة صانع رائع سيتمكن من توفير ما تريدين.

- أوه... ولكن موعد ريموس مع الطبيب اليوم! يريد إجراء فحوص تامة له.

أظهر عبوس حاجبيه معارضته للفكرة... ولكنه لم يعترض بل قال:

- أنت عنيدة ومثابرة... أصررت في البدء على أن يغير غرفة نومه... والآن تصرين على هذا! على أي حال، لا أستطيع إلا أن أشكر لك اهتمامك بمصلحة الصغير الذي أوافق أن نصحبه معنا، مستغلاً وجودكما عند الطبيب لإتمام بعض الأعمال.

حين اصطحبت ريموس إلى الطبيب بعد الظهر تبين لها أن لا حاجة لبقائها مع الصغير فقد قال الطبيب بمرح:

- لا داعي إلى الانتظار آنسة هافرشام إذا كان لديك ما تشتريه... خذي وقتك، فبإمكان ريموس اللعب مع أطفال شريك في الحديقة.
- لكن، قد يحتاج إلي... إنه مرتبك قليلاً.

ضحك، ودفعها بلطف نحو الباب:

- لا تجزعي... أعدك بأن أجعله يعتقد أن ما سيحدث لعبة. وإذا كان هناك ما أريد معرفته أطرحه عليك حين تعودين.
أحست أنها غير مرغوب فيها، فعادت إلى سكوت المنتظر في

السيارة، وقالت بجفاء:

- لا يحتاج إلي.

وأحست بتزايد توترها حين ضحك هالياً:

- يبدو أن روح الأمومة فيك قد أهيئت عزيزتي. . . ومن الواضح أن الوقت قد حان ليكون لك أطفال.

كانت البلدة الريفية رغم صغرها جوهرة كاملة. يقطعها نهر إلى نصفين، يتصل أحدهما بالآخر عبر جسرين، يسبح تحتها الأوز الناظر إلى الناس والمتنازل بكبرياء لقبول فئات الخبز الذي يرميه الجالسون على مقاعد خشبية كبيرة على ضفتي النهر. كانت راوينا قد مرت بالبلدة أثناء توجهها إلى قصر كالدونيان، وقد تمنّت يوماً لو تسنح لها الفرصة لتستكشف الشوارع الضيقة المنتشرة على محاذاة النهر، والمؤدية إلى مركز التسوق المكتظ بالسواح التائمين إلى شراء قماش «التارتان» الشهير في أسكتلندة، وقماش التويد الصوفي وقمصان الصوف المحبوكة في جزيرة «فاير». . . وشغل الإبرة المعروف محلياً باسم «فلوورين» وإلى التطريز الناعم.

توقفت خارج محل يتوسط معروضاته وشاح صوفي رائع تشبه حياكته خيوط العنكبوت.

أحسّ سكوت أنه فقد مرافقته. فتوقف ثم تراجع، وقال معلقاً:

- أرى أنك تبدين إعجابك بوشاح شهير معروف عندنا باسم «شيتلاند». وهو يزن حوالى أونصتين ونصف، يُخضع إلى اختبار قديم لمعرفة قوته ومتانته وذلك بتمريره في خاتم الزواج. ما زالت طريقة الصنع متوارثة من الجدات إلى الحفيدات، والشيء نفسه ينطبق على هذا القماش الصوفي المعد لصيادي السمك. . . فالمناطق عندنا، تلتزم بمصنوعاتها الأصلية الخاصة. فجزيرة «لويس» مثلاً تقدم تصاميم اسمها «نوافذ الكنيسة» و«مخالب الكركند» أما منطقة «إيرسكاي»

فمشهورة بتصميم «شجرة الحياة» و«رباطات الحب» والتصاميم جميعها هي رمز للأغراض التي صُنعت من أجلها.

تشجع عندما رأى اهتمامها الشديد فأردف مبتسماً:

- هذه التصاميم، تسافر مسافات بعيدة مع بنات الصيادين في رحلاتهن على ظهر المراكب من أجل تنظيف السمك. وأثناء السفر تلتقي البنات بمسافرات من مناطق أخرى فيتبادلن التصاميم. . . في هذه الأيام الألوان كثيرة ومتنوعة ولكن قماش صيادي السمك هذا، من جزيرة «إيريكي» وهو يُحاك دائماً بأدق الأبر أما الألوان فإما أن تكون خضراء دكناء أو سوداء. ولأن لكل عائلة تصميم خاص بها ترين أن الناس يتعرفون إلى أجساد الصيادين الغرقى في البحر من قماش ثيابهم.

كانت راوينا تفكر في كلامه حين توقف بها أمام واجهة مختبئة بعيداً في شارع فرعي. ولكن، ما إن دخلت، حتى ظهرت المعاملة الممتازة فقد أسرع سيد عجوز إلى تحيتهما، انحنى باحترام كبير إنما بدون ما يدل على الخضوع.

- لقد أوليت مؤسستنا شرفاً كبيراً لورد كالدونيان وأرجو أن نتمكن من خدمتكم.

- أرجو هذا سيد فروبيشر. . . هذه الأنسة هافرشام، خطيبتى وهي ترغب في اختيار هدية الخطوبة. . . ألدك ما هو مناسب؟

- بكل تأكيد. . . أتفضل السيدة الشابة بروشاً بدلاً من خاتم الخطوبة التقليدي؟

من الطبيعي أن تبدو راوينا حائرة فأردف الرجل:

- أستطيع أن أقول من تعابير وجه خطيبتك سيدي اللورد إن زواجك سيكون زواج الشوك بالورد. . . أليست السيدة انكليزية؟

- نعم هي انكليزية سيد فروبيشر. . . أقترح أن تريها ما هو موجود

لديك ودعها تختار بنفسها.

أدخلنا إلى غرفة داخلية معزولة قعدا فيها أمام طاولة راح العجوز يضع على مخمل أسود مجموعة مختارة من البروشات المثيرة وكان العديد منها يحمل رسم الصليب السلتي الذي شاهده راوينا محفوراً على حجارة القصر القديمة، وعلى ما حوله. كان بعضها كبيراً ذا نقوش معقدة عميقة لها شكل أوراق الشجر، ولكن الوحيد الذي أخرج شهقة فرح من شفثيها بروشاً فيه قلبان متشابكان يربطهما تاج. تبادل سكوت والرجل العجوز الابتسام حين مدت يدها لتضعه في راحتها... قال السيد فرويشر ضاحكاً:

- إنه اختيار مميز آنسة هافرشام. إنه بروش «لاكنبوث»... وهو عادة يُهدى عند الخطوبة، ولكنه يعتبر تقليدياً تعويذة من السحرة... جعلها خجل عامر لا تقوى على النظر إلى سكوت... أعادت البروش إلى مكانه، وقالت:

- يبدو فريداً في نوعه وجميلاً ولكنني أفضل ما هو أرخص ثمناً. حل صمت وذهول فأدركت متأخرة غلطتها... فمن غير المحتمل أبداً أن يتردد المركز كالدونيان أمام ثمن هدية عروس المستقبل! ولكن سكوت قال بنعومة:

- سنأخذه... إن الإنكليز يؤمنون أن الأسكتلندي يقبض بشدة على ماله وعلينا من قبيل الواجب سيد فرويشر، أن نثبت بطلان هذه الخرافة.

لم يدرك السيد العجوز أن الضحكة التي تلت إنما كانت تغطية لاستياء سكوت، وخرج راوينا العميق. كانت على استعداد للقبول بخاتم متواضع على أن ترده له حين تغادر القصر ولكن البروش ذا القلبين المتشابكين كان أشبه برمز للالتزام شخصي... ولأنها كانت تعلم أن أي احتجاج سيسبب المزيد من الإحراج لاذت بالصمت حتى تمت

عملية الشراء... ولكنها أثناء ذلك عزت نفسها بالتفكير أن البروش سيؤمن لها حاجزاً من ماريان الساحرة.

بناء على إلحاحها، أوصلها إلى خارج عيادة الطبيب... ثم تركها هناك ليكمل ما لديه من عمل وقال واعداً:

- لدي فقط زيارة واحدة خاطفة... سأكون معك ومع الصبي بعد نصف ساعة.

كان الطبيب يونغ ينتظرها. حينما وصلت أدخلها إلى عيادته وهناك تنهى إليها من الحديقة ضحكات ريموس وقهقهاته. سألت:

- ما هي الاستنتاجات التي توصلت إليها أيها الطبيب؟

تفرس فيها جيداً قبل أن يرد بسؤال مضاد:

- كم تعرفين عن ظروف الصبي آنسة هافرشام؟ وعن عائلة سايتون بوجه عام؟

- ليس كثيراً. كل ما أعرفه عبارة عن معلومات متناثرة تلقيت معظمها من والد ريموس ومن مدبرة المنزل، ومن الصبي نفسه.

- هم... ريموس ثرثار صغير... أليس كذلك؟ كم من المصادقية يمكن أن نضعها على معتقداته المذهلة؟ تنهدت راوينا:

- أكان يخبرك عن لعنة العائلة؟ إنها خيالية طبعاً. ولكن الجميع يصدقها، حتى صاحب السعادة!

- خيالية؟ أعتقد أن وصفها بالمذهلة أنسب.

شهقت: «أنت لا تصدق بكل تأكيد...!»

ابتسم، ورفع يده، وكأنه يرد هجومها ساخرأ:

- مهلك... مهلك آنسة هافرشام. اسمعيني قبل أن تلقي

محاضراتك المتعلقة بسخافة الإيمان بالقصص الخرافية... أتعلمين

أن الفلكلور الشعبي أثار اهتمامي إلى درجة أنني قمت بدراسة عنه.

أجد الألغاز تضايقني كما تضايق حبة رمل المحارة. أنت مستعدة
لصرف النظر عن قصة لعنة عائلة سايتون على أنها قصص عجائز
خرافية، ولكن قبل هذا، اطرحي على نفسك هذا السؤال: هل هناك
سبب وجيه للاعتقاد بأن الناس في القرون الماضية كانوا أكثر سذاجة
وميلاً للتصديق مما نحن اليوم؟ هم مثلنا، عرضة للمخاوف والقلق.
لذلك لجؤوا إلى قوة الخيال لتفسير ما هو أبعد من حدود معرفتهم.
لوحت بيدها احتجاجاً:

- صحيح ولكن، لا يمكنك أن تصدق...

- أتؤمنين بالأشباح آنسة هافرشام؟

استوت في جلستها، والإنكار متجمد على شفيتها ولكنها تذكرت
تردها وخوفها يوم سارت في ممر مظلم قائم طويل في القصر
المرعب.

- آه. لا. بلى!.. لست واثقة...

ضحك:

- آه... هكذا إذن. أنت كالعديد منا، يؤمن بالأشباح وينكرها.
أنت مستعدة لنكران وجودها ومع ذلك تكرهين البقاء وحيدة ليلة واحدة
في منزل يقال إنه مسكون... أليس كذلك؟
حين هزت رأسها بخجل، تابع راضياً بأنه نجح في إثبات وجهة
نظره:

- يكمن اهتمامي في الخرافة التي تتصل بالطب... لقد أثبتت
أبحاث طبية أجريت أخيراً مقدرة بعض الوصفات التي تصفها النساء
القرويات من الأعشاب على الشفاء. فأوراق الصفصاف مثلاً تُستخدم
من قبلهن لمعالجة الحمى، والأدوية التي أساسها السلسيك أسيد اليوم
تستخدم للغرض نفسه ومُستحلب شجيرة الساحرة، الصفراء الزهر ما
زال مستخدماً لتخفيف آلام الرضوض والتواء المفاصل... والبنسلين

يذكرنا بالكمادات التي كانت تستخدمها الساحرات من الخبز، أو
الخميرة، والجزر والخضراوات الأخرى... هكذا ترين، أن لا فائدة
من الاستهزاء.

بدت عليها الحيرة:

- ولكن... ما علاقة هذا كله بلعنة عائلة سايتون؟

- العلاقة عزيزتي، قد تكون في واقع أن ما يُنظر إليه الآن على أنه
لعنة كان له أصل، منذ قرون. فقد تحمل الأجيال المتعاقبة مرضاً بسيطاً
مرده إما الوراثة أو محيط معين.

راحت تستجمع المعلومات في رأسها:

- أعني... أن عاهة اللورد يمكن أن تكون...

- خللاً تشنجياً في العضلات. أما سببها إن لم أكن مخطئاً،
فالإصرار الغبي على استخدام غرف النوم الرطبة في الطفولة.

ذعرت راوينا وصعقت، ثم بدأت تتمتم:

- كان عند العائلة منذ قرون عداً للطب لذا اعتمدوا على وصفات
كانت تضعها ماريان وأسلافها... ولكن ذلك كله غير منطقي، خاصة
إن عُرف أن إحدى جدات ماريان هي التي أنزلت اللعنة بالعائلة!

- في عصر غارق بالخرافات، حين كان الناس يؤمنون بالسحر
والشعوذة كان يمكن لطب الساحرات، مهما كان أساسه أن يسبب
لعنات مختلفة. والساحرة البارة قادرة على استغلال الظروف لتلقي
اللعنة. تذكرني يا عزيزتي، كانت الساحرات بسبب إقبال الناس عليهن
رائدات الطب الحديث. لا شك أنه كان لدى أسلاف ماريان القدرة
على معرفة نقطة الضعف في أية عائلة ولا شك أيضاً أنهن كنّ يتمسكن
بها ليطلقن لعنة وفي غياب شخص عاقل يقول إن أفراداً سابقين من
العائلة كانوا يعانون من المرض نفسه كنّ يحققن غايتهم. فمن
المعروف اليوم أن الخوف، التوتر، أو أي ضغط نفسي آخر، قد ينتج

عوارض مؤلمة، وأن أفضل علاج في مثل هذه الحالات، موجه إلى العقل لا إلى الجسد... قد تكون تعويذات الساحرات بلا فائدة للعلاج الجسدي ولكنها علاج فعال للعقول.

تراجعت راوينا في مقعدها، مشتتة الفكر من منطقته ومطمئنة في الوقت نفسه لأنها فهمت الآن فقط لماذا كان تأثير سكوت في عقلها.

- اشرح لي أيها الطبيب... ماذا يعني هذا كله بالضبط.

- لا أقدر أن أكون متأكد مئة بالمئة الآن... لكنني واثق أن لعنة عائلة سايتون هي في الواقع نوع نادر من مرض العضلات، بدأت في وقت مبكر من الطفولة. وتؤثر أكثر ما تؤثر على الذكور، وتظهر في تشوهات، إما في أصابع اليد أو في أصابع القدم.

تسمرت عيناها: «هل يمكن شفاؤها؟»

أطلقت نفساً عميقاً حين هز رأسه:

- أجل آنسة هافرشام. فبمساعدة التدليك، والحركة، وجلسات كهربائية، تم تسجيل حالات شفاء كبيرة.

١٠ - تبكي على كتفه

كان موعد وصول ضيوف سيبيل نهار السبت وكانت الحفلة ستجري في الليلة ذاتها. لم يكن عند راوينا ذاك اليوم عملاً كثيراً. لذلك، تسنى لها مساعدة سيبيل في إخراج الأواني الكريستالية من أعماق خزائن مغطاة بالغبار، وفي ردّ الفضيات الباهتة إلى لمعانها الأصلي، والإشراف على إزاحة المفروشات والتنظيف وتلميع أرض القاعة الكبرى المكسوة بألواح الخشب المصقول التي ستجري فيها الحفلة الراقصة.

أظهر جاك حماساً غير متوقع، وكان يداً مساعدة في أمور كثيرة... ولكن يا ترى هل كان وجوده نابعاً من رغبة حقيقية في العمل أم كان تظاهراً أبقاه قرب زوجته. والملاحظ أن الاثنين كانا على وئام واتفاق، هذا ما لاحظته حين شاهدت جاك يزيل بقعة غبار عن أنف سيبيل باهتمام وحنان كما شاهدت وجهه يضاء إشراقاً حين أظهرت له شكرها بابتسامة ساحرة. ولكن سيبيل تبدو شخصية مختلفة حين لا يكون سكوت موجوداً، فعندها تصبح أقل عدائية وأكثر استرخاءً، وتظهر تقبلاً لمداعبات زوجها. حتى أن راوينا أحست بالإعجاب بها حين قالت بعدوبة لزوجها، والمنديل ما زال معقوداً حول شعرها، ومنفضة الغبار في يدها، والبقعة ما تزال على أنفها:

- أنا قلقة بشأن اختيار أنواع الأطعمة عزيزي. كان سكوت فظاً معي حين ذكرت الأمر له... بل تمادى معتبراً تنسيق أصناف الطعام عجرفة لا معنى لها. طبعاً، هو لا يملك خبرتك في هذا المضمار لأنه

لم يدرس قط هذا الموضوع بعمق مثلك . . لذلك ، أنا واثقة أنه لن يغضب إن طلبت منك أن تتولى تنسيق أنواع الطعام بنفسك .

- لسكوت سلطة لا يستحقها . . وهذا كله عائد إلى تقاليد آل سايتون . لو سحبت لي لائحة بما تودين تقديمه ، أعدك بالاهتمام بتنسيقها ، بحيث يرضي هذا أصعب الذواقة في العالم .

ابتسمت سيبيل ، واستدارت تسأل راوينا :

- أليس من الرائع أن نتخلص من التفكير في المشاكل ؟ كنت حائرة في ما أختار ، ألم تكوني حائرة ؟

تخلت راوينا عن الحذر بسبب الحماس الذي يجري :

- لقد فكرت قليلاً في المشكلة ، لكنني لست خبيرة . . فمعرفتي في هذا المضمار محدودة .

وظفقت تردد أنواع الطعام التي اعتادت على تنسيقها أثناء العمل مع السير دوغلاس . . وكادت تعض لسانها حين رأت صمت متسائل بعدما ذكرت ما ذكرته . وزاد انزعاجها حين نظرت إليها سيبيل بخبث وقالت بقسوة :

- أنت تدهشينني . لا يتوقع المرء عادة أن يجد سكرتيرة تملك ولو جزءاً يسيراً من المعلومات عن موضوع متخصص كهذا . . كنت أفكر دائماً أن حب تنسيق أنواع الطعام هو معدّ لفئة مختارة من الناس ، فئة لها ذوق في مزج الأحاسيس المختلفة كأن تتمتع بحمام معطر ، وبالوجبات اللذيذة ، وبالحب في آن واحد .

قاومت راوينا لتستعيد القليل من وقارها ، وقد أزعجها تشامخ تعابير سيبيل :

- أتحاولين الإشارة إلى أن مثل هذه الأمور هي من حق الطبقة الأرستقراطية فقط ، وأن من هم أدنى منزلة يجب أن يحرموا من الإحساس بحيث لا يتمكنون من التمييز أو التمتع بمثل هذه المباهج ؟

بدا على سيبيل الانزعاج ، فهزت كتفيها بارتباك :

- ليس بالضبط . . إنما يجب أن تعترفي أن الناس في . . .

مجتمعاتكم نادراً ما يهتمون بمثل هذه الأمور .

ضحكت راوينا ، وكان ارتباك سيبيل يزداد مع تصاعد تسلية راوينا بالموقف . ثم قالت أخيراً :

- أوه . . حقاً سيبيل ! أنت بعيدة جداً عن الطبقة الكادحة . .

العطلات في أوروبا في متناول معظم الناس وجيوبهم هذه الأيام . . في الواقع وبالتحديد في الأعوام الأخيرة كنت أقضي معظم عطلاتي وأنا أتجول في فرنسا وألمانيا ، وإيطاليا . وأعرف أن ما أفضله من ملذات الحياة يشاركني فيه آلاف ممن يملكون عقولاً راجحة ترفض مجرد الركود بسأم فوق رمال شاطئ أو إلى جانب بركة سباحة .

بدا في صوت سيبيل الضجر المزدري :

- أوه . . أتعنين الرحلات السياحية العامة وما إلى ذلك ؟

هزت راوينا رأسها دون أن يرف لها جفن :

- أجل . . وما إلى ذلك !

أحسن جاك بتبدل مزاج زوجته ، فقاطعهما بمرح مصطنع :

- راوينا على حق في أمر واحد ، وهو أن لا فرق بين الطبقات الاجتماعية في هذه الأيام .

قاطعهم صوت تنأى إليهم عن الباب :

- لا تبدو الفروقات كبيرة في وقت متأخر من الليل ، أو في ساعات

الصباح الأولى ، خاصة مع رفيق من الجنس الآخر .

دلف سكوت إلى الغرفة ، والتواء شفثيه الخبيث يدل على معانيه

الشرطانية . . حبست راوينا أنفاسها بحدة متسائلة كيف خدعت يوماً

واعتقدت أنه يسلك سلوك العفة .

صدق أنك تملكه ، وستملكه !

يولد هذا الشعار نوعاً من العجرفة غضت النظر عنها من قبل.
فالمركز كالدونيان، لا يطلب شيئاً... بل ما يشتهي يحصل عليه!
أحست بأن لون وجهها راح يشحب كلما تقدّم منها وقال متمتماً:
- هل صدمتك... أيتها الطاهرة الصغيرة... سامحيني. أنسى دائماً
عزلتك. فمن دون شك أنك لا توافقين على مثل هذا الكلام الدال على
التهتك والاستهتار... لكن بعض الرجال يعتبرون هذا الكلام مساعداً
لهم على الإغواء.

كان قد وقف مستمتعاً باحمرار وجهها. أما مزاجه المزعج فالغاية
منه إثارة من يتطلع إليهما، ولكنها انتفضت حين استقرت يدها على
كتفها حيث راحت أصابعه تدلك بشرتها الناعمة، وكادت تتراجع
مذعورة حين أحنى رأسه ليطلع شفّيته القاسيتين على خال أسود يقع
بكل فخر في موقع يلفت الانتباه.

- ما من رجل يحتاج إلى ما يثيره ما دام برفقتك. ربما يحتاج فقط
إلى أضواء خافتة وموسيقى ناعمة، للمساعدة على تهدئة مخاوفك.
هزها قليلاً ليخرجها من حالة الذهول، فقد كان تأثير عينيه
المغناطيسي قوياً إلى درجة السيطرة عليها ولكن كلماته الساحرة
حطمت التعويذة من حولها. وكان وحده من أحسن بارتعاشة جسمها.
- للوصول إلى استنتاج ناجح يجب أن يشعر الشريك بالجاذبية
نفسها... في هذه الحالة ضوء شمعة، وفنجان شاي أكثر تأثيراً وأقل
كلفة.

ضحك جاك دون أن يدرك ما يكمن وراء الكلمات من توتر:
- كلام عظيم راوينا... اتركي أخي معلقاً... فلطالما وقعت النساء
في سحره بسهولة في الماضي. وأنا أشك أن عاهته هي التي تلعب على
أحاسيسهن الغريزية، مع أنني مضطر للاعتراف أنهن ما إن يعلقن حتى
يصبحن على غير عجلة للخلاص.

كان هذا القول اللاذع موجهاً إلى زوجته التي كافحت دون نجاح
في إخفاء تكدرها...

اعترضت سيبيل بلطف خبيث:

- أجد في ما قالته خطيبتك تناقضاً ساذجاً سكوت. فبعدما أظهرت
معرفة مدهشة بأصول تنسيق الموائد الفاخرة، واعترفت بالسفر إلى
أوروبا بشكل واسع لا أعتقد أنها ساذجة كما تشير أنت.
لمعت عيناها بالانتصار حين رأت انتفاضته وحتى رده السريع لم
يخدعها:

- كنت أشير إلى بساطة الطباع لا إلى بساطة العقل، سيبيل... ربما
سافرت راوينا كثيراً، ولكنها رغم ذلك ما زالت تمتلك القدرة على أن
تبهجها أشياء بسيطة، وما زالت تمتلك أيضاً روح المرح وتفتقر للمرارة
والسخرية. ولهذا يمكننا أن نتعلم منها أنا وأنت.

أنهى كلامه ببطء وكأنه متعجب من الصدق الذي تحتويه
كلماته... ولكن شوكة الحقيقة هذه وخزت كبرياء سيبيل، فارتدت
عنه بوحشية شريرة، وصرخت بحدة:

- ما دمت مسلوب اللب بخطيبتك إلى هذا الحد فلماذا لا تعرفها
للعالم معلناً موعد زفافك؟ أجدها... فكرة رائعة! ما رأيك سكوت،
هل نجعل حفلة ليلة السبت موعداً لإعلان خطوبتكما؟

ساد الصمت على الجميع بانتظار رده... أما هو فجال بناظره
على كلّ منهم ببرود وبطء. كان وجه سيبيل مرتدياً تعابير التحدي
وكانه راية مرفوعة وكانت عيناها جريشتين تتحديان بالاعتراف بما طالما
ارتابت فيه... فهي تظن أن الخطوبة لا تعدو أن تكون مصطنعة لسبب
وحيد ألا وهو رميها بين ذراعي زوجها. بدا جاك تائقاً، وكأنه هو أيضاً
مرتأب من هذا التحالف، ومحتاج إلى ما يطمئنه.
أما انطباع راوينا فكان أسهل للقراءة، فردة فعلها الأساسية كانت

اتساع عينيها رعباً. ثم عندما توضحت الفكرة، أحست بمشاعر الخوف العنيف تثيرها وتلقي في قلبها الذعر وفي معدتها التقلص الحاد وفي حنجرتها عدم القدرة على ابتلاع ريقها. الفكرة متافية للعقل... ولكن الوقت يداهمها. لقد جاءت إلى قصر كالدونيان لا لتحل مشاكل عائلة سايتون... بل لزيادتها... سحبت نفساً عميقاً بصمت تقول لنفسها: هل أجرؤ؟ لمع في عيني تفكيرها صورة للقاعة الكبيرة وهي محتشدة بأقارب العائلة وأصدقائها الذين يصفقون ويهللون بابتهاج للإعلان عن قرب زواج كبير عائلة سايتون. وتراءى لها سكوت متقبلاً الأمر الواقع مبتسماً للمهنئين. كما تراءى لها استياؤه الغاضب الذي سيحتاج وجهه حينما سترمي في وجهه هدية الخطوبة أمام الجميع قائلة له في جملة واحدة بليغة رأيها بالضبط بشخصيته الكريهة.

سمعت من خلال الضجيج الذي عم أذنيها، رد سكوت الهاديء: - هذا قراره يجب أن يكون لراوينا... ولأن خطوبتنا كانت منذ فترة وجيزة، فأنا متأكد أنها ستفضل أن نحافظ على سرنا فترة أطول. سمعت صوتها يقول من مكان بعيد:

- أوه... لا أدري سكوت. فيحق لأصدقائك أن يشاركونا سعادتنا، وبما أن من غير الممكن أن يُقام حفل كبير في القصر في المستقبل القريب، فأظن أن حفلة يوم السبت مناسبة للإعلان. نظر إليها نظرة من لا يصدق، نظرة ذهول واستياء وتجهم. أما هي فتحملت نظره بابتسامة زائفة، تنتظر لمعان الانتصار الذي كان يجب أن يتبع كلامها بدل هذا الرعب «السلتي» الفاقد للحس. ولكنها اضطرت للإعجاب لسرعة استعادته لجأشه، كانت الوحيدة التي لاحظت الطريقة التي سلكها للتعامل معها. - إذن... فليكن هذا.

من مكان ما خلفها، سمعت تمتمة سيبييل المخنوقة، وهي تهرع

خارج الغرفة وحين لحق جاك بزوجته، أدركت أنها إن لم تفر هاربة، فستكون وحدها وجهاً لوجه مع الأسد في عرينه! أعار الخوف جناحين لقدميها، فسارت في أعقاب جاك، محاولة الهرب. وعندما أصبحت على بعد خطوة من السلامة أطبقت يد على كتفها، وجرتها بقسوة لتعود إلى الغرفة التي صُفق بابها بسرعة. حدثت ببلاهة إلى وجهه العاصف وتفكيرها في فراغ ولسانها جاف إلى درجة أنه علق في سقف حلقها. وعندما تحدث بصوت رهيب ذعرت أكثر مما لو تحدثت بغضب مستعر.

- أظن من الواجب التوضيح... أليس كذلك؟

- أنا... أنا...

- لا تزعجي نفسك باختلاق الأكاذيب... فالسبب وراء عملي واضح! وبما أنني أبله، فقد لعبت لعبتك، وأعطيتك فرصة أرسلها الله لتحقيقي الاحترام لنفسك ولتحصلي على صيد ثمين، كما هو معروف في أوساطك. وأنا من كنت لدقائق خلت أقدر بساطة شخصيتك... يا إلهي! لا بد أنك أعظم النساء شراً وأكثرهن خداعاً ومن سوء حظي أنني قابلتك!

قاومت راوينا خوفها منه، وسعت إلى إيجاد كلمات تقنعه لتستمر الخطوبة. وبينما هي واقفة وأهدابها منخفضة ورأسها منحني بما يشبه الخجل، تصاعد الاحمرار إلى وجنتيها، بألوان متدرجة ما بين الوردي الناعم والأحمر القاتم. ولكن عقلها كان في سباق مع التفكير الشرس، ثم، وكأنما رمى إليها طوق نجاة تذكرت نصيحة أخيها لها: استخدمني إرادتك كامرأة. ابكي قليلاً على كتفه!

أظهرت الضعف الذي يجرده من سلاحه، فانهارت على كتفه وبدأت تبكي بصمت.

- أنا . آسفة سكوت . .

اضطر إلى إخفاض رأسه ليفهم الكلمات المخنوقة على صدره :

- أعلم أن ما فعلته سخيف ولكنني كنت يائسة . . أترى . . أنا أحبك . . كانت فكرة الاعتراف بي زوجة المستقبل إغواء وحشياً مجنوناً وعذاباً جعلتني أفقد صوابي . أرجوك . . !

رفعت عينيها العنبريتين الغارقتين بالدموع وهي تتابع الرجاء :

- أرجوك . . سكوت ، لا تذلني أمام سيبيل وجاك . . ما الضير إن سمحت أن تعلن الخطوبة كما خطط لها؟ لن ألزمك بها . وكيف أستطيع؟ أعدك أنني صباح الأحد سأختفي من حياتك ، وبعد ذلك لن تسمع عني شيئاً . . إنما أرجوك ، اترك لي ليلة واحدة أذكرها! أهذا طلب كبير؟ ليلة سعادة تعزيني العمر كله في منفاي الوحيد؟

بدت له شهقة الانتصار التي خرجت منها تنهيدة ألم وراحة فقد التفت ذراعه ببطء على خصرها . . يا لغرور الرجل! ضغطت وجهها على قميصه المبلل بدموعها .

- كم أتمنى . . .

وصمت ، ولكنها أحست بالانتصار لسماعها لهجته المخنوقة ، فتحرك جسدها النحيل بتوتر عندما لمست يده المرتجفة رأسها ، تداعبها بحنان لا يصدق . همست :

- سكوت . . . ماذا تتمنى؟

شدّها إليه ، فارتجفت .

- تعلمين راوينا أنني أقسمت ألا أتزوج! ولم أندم على هذا القسم إلا مؤخراً . فلم يحدث أن شعرت بأحاسيس عميقة نحو أية امرأة ، ولم ألتق بمن رغبت أن أشاركها كل لحظة من ساعات النهار والليل حتى دخلت منزلي وسرت رأساً إلى قلبي . لقد حاربت طويلاً وبضراوة مشاعر أترتها في داخلي مرات ومرات عندما كنا نعمل معاً ، كان عليّ أن

أكبح نفسي لأمنع يدي عن ملامسة شعرك الجميل وعن مداعبة وجنتيك ، وكان عليّ أن أزجر نفسي لئلا أنتزع جسدك الصغير المتحفظ من وراء حاجز الطاولة لأذيب الجليد من عروقك بعناقِي العاصف . لكنني كنت أذكر نفسي باستمرار أنك إنكليزية ، وأنت مخادعة لا تستحقين الثقة . كنت أخلق الأعذار لصرف النظر عن حاجتك لكتاب توصية وأقول لنفسي إن لك الحق بالاحتفاظ بأسرار ماضيك . . كل هذه الأمور لم تعد تهمني الآن . . لن أستطيع أن أعمي بصيرتي عن واقع أنني أريدك يائساً . أحبك حتى الدمار . ومع ذلك . . لا يمكنني أن أطلب منك أن تصبحي زوجتي ، ولا يمكنني تحمل وزر عذاب الحياة مع طفل قد يولد مشوهاً . . .

رفعت راوينا رأسها إلى وجه يشع صدقاً وإخلاصاً . كانت قسماته مثال الكبرياء وكان فمه المتجهّم ملتويّاً بخطوط الأسى والإحباط . حان الآن وقت تبديد خرافة لعنة عائلة سايتون ، بأن تكرر له الكلمات التي ذكرها لها الطبيب يونغ . كان بإمكانها حتى وإن لم تتح لها هذه الفرصة الثمينة أن تقول له إن الزوجين في هذه الأيام قادرين على اختيار عدم إنجاب الأولاد . ولكنها تذكرت هوارد والانتقام الذي يجري في عروقها كالحمى . . ها هو النجاح في تناول يدها ومع أن طبيعتها كانت تنفر من تنفيذ مثل هذا المخطط البارد فتذكرها حياة أخيها المدمرة أضفى على تصميمها قوة لينال «الطاعون الأسود» ما يستحق .

ادّعت أن قلبها محطم فانتزعت نفسها من بين ذراعيه بأسى شديد وهرعت باكية في الردهة تعي أنه ما زال هناك دون حراك ، عاجزاً عن الإمساك بها . شعرت به جسداً مستوحداً رأسه الأسود منحني وعيناه السوداوان غائرتان بالبؤس .

١١ - رجل من ماضيكَ

سمعت راوينا وهي في المكتب توافد الضيف الأول، فكان أن وضعت الغطاء على الآلة الكاتبة لأنها وعدت سيبيل بالمساعدة في إيصال الوافدين إلى غرفهم. وبما أن المراسلات لم تكن كثيرة، لم تجد عذراً في البقاء داخل المكتب الصغير الذي أصبح الآن مرتباً والذي بات ملاذها الآمن، فهو المكان الوحيد الذي تحس به بالراحة في قصر كالدونيان.

دنت من مرآة صغيرة معلقة خلف الباب لتتأكد من شعرها إذا كان مرتباً ومن وجهها إذا كان خالياً من أية بقعة سوداء قد تنتقل إليه من الآلة الكاتبة. ولكن الذي طالعها عينان متعبتان تحملان التعاسة التي تشعر بها منذ اعتراف سكوت المذهل. كانت الكلمات قد دارت في رأسها مرات ومرات وفي كل مرة كانت تشعر بأن يداً عملاقة تعصر قلبها وتقطع عنها أنفاسها وتُسارع في إسقاط دموع ساخنة.

كان لديها يومان كاملان لتفكر في ما مرَّ بها. في البداية رفضت الاستنتاج الذي قدم نفسه لها ولكنها في النهاية، اعترفت بأن المشاعر التي تعاني منها، وتؤثر على جسدها كلما سمعت وقع أقدام مقبلة وتسارع الدماء بوحشية في عروقها كلما تذكرت ذراعيه وهما تداعبانها وتحضنانها ناهيك عن تلمسها الخال الذي ألصق شفثيه به. كل هذا يمكن اختصاره بكلمة واحدة... الحب! لقد ارتدت عليها جذوة الانتقام فهي تحب الرجل الذي سعت لتكرهه بعمق.

كان الأمل أحياناً حتى وسط يأسها يتصاعد إلى نفسها... لقد

اعترف سكوت لها بأنه يبادلها مشاعرها وليس عليها إلا بأن تبادره باعتراف مماثل ذاكرة له ما قاله الطبيب يونغ، لتزيل آخر الحواجز بينهما نحو مستقبل سعيد... ولكن كان يطيح بهذه الأفكار شعورها بعدم الإخلاص لهوارد الذي لا تريد أن تقيم سعادتها على حسابه. فالسنوات التي تولت فيها رعايته تركت بصماتها عليها... وتعلم جيداً أن ردة فعله على هذا ستكون الازدراء، والاحتقار والارتباك لأنه حُرِم من ملاذه الوحيد الآمن في هذا العالم المعادي له.

كانت أسراب من السيارات تتوقف قرب المدخل عندما وصلت إلى الباب. نادتها سيبيل ما إن شاهدتها فسحبت راوينا أنفاساً قوية لأن كل العيون توجهت إليها. حينما سمعت صوتاً آخر يناديها باسمها، ظنت أن مخيلتها تصوّر لها ما ليس موجوداً ولكن عندما تعرفت إلى شخص كان بعيداً عن المجموعة ابيضّ وجهها وشعرت بأن سيفاً مشؤوماً قد سلط عليها.

- راوينا... يا للروعة! ماذا تفعلين هنا؟

تمتمت تحسّ بفضول سيبيل المتصاعد:

- سير دوغلاس... قد أسألك السؤال نفسه. هل ترافقك زوجتك؟

أتاها صوت من ورائها:

- أتعرفين ديردر أيضاً؟

ثم تحرك سكوت نحو اليد الممتدة إليه:

- أهلاً بك في قصر كالدونيان دوغلاس، صداقتك مع خطيبتك

تجعلك على الرحب والسعة بشكل مضاعف.

ترك السير دوغلاس فمه يفتح على غاربه... وقال مردداً كمن لا

يصدق:

- خطيبتك...؟

حين ضاقت عينا سكوت تعجباً، جمعت راوينا شجاعته وقالت

بسرعة :

- اسمح لي أن أوصلك إلى غرفتك. . إن بيننا كلاماً كثيراً إنما لا يجوز أن نتطرق إليه ونحن على أعتاب القصر. دعنا نترك هذا إلى ما بعد. . أيمكن هذا؟

باركت سرعة فهم وتقدير ربّ عملها الذي استجاب إلى طلبها .
- فكرة رائعة! يجب أن أعترف أنّ رحلتي الطويلة أرهقتني حتى بثُّ
أتوق إلى الاستحمام والاغتسال . دليني على الطريق راوينا عزيزتي . .
فكما قلت ثمة أحاديث كثيرة نتناولها .

عندما كانت تقود السير دوغلاس أحست بعيني سكوت ثقبان
ظهرها ولكنها ظلت مسرعة في سيرها. . ولم تشعر بالأمان والاطمئنان
حتى أوصلته إلى غرفته. . كان يمكن أن تكمل اقتراحها حرفياً
وتنسحب حتى تراه لاحقاً، إلا أن السير دوغلاس أوضح رغبته في
بقائها معه.

- لا.. لن تذهبي سيدتي الشابة.. ليس قبل أن توضحي لي هذا اللغز! عندما ذكر سكوت في سياق الحديث منذ أسابيع، لم تذكر لي ما يوحى إلى لقائك بأقدم صديق لي.. وها أنا الآن أراك في فترة وجيزة خطسته!

تهاكت على مقعد. . فللسير دوغلاس ألمع العقول القانونية في
البلاد. . ولا مجال أبداً لخداعه بأكذوبة. كما أنها لا تستطيع إلا أن
تقول الحقيقة وهذا ما حدث فعلاً.
- يستحسن أن أبداً منذ البداية.

سردت كل شيء بسرعة: ابتداء من فرح هوارد الذي توقع الحصول على الوظيفة وصولاً إلى ضياع الفرصة من يده بسبب تدخل رب عمله الأسبق الظالم، ومروراً بقراءتها الإعلان الذي يطلب فيه المركز سكرتيراً وانتهاء برغبتها في الانتقام وبالمأزق الذي جعلها

تكون خطيبة المركز . . سمعها بصمت حتى اعترفت أن في نيتها تحقير
سكوت أمام أصدقائه لتحقيق انتقامها النهائي الذي تهدف منه إلى
تخطيم كبريائه السلطوية المتقدمة .

عندها قفز السير دوغلاس مذعوراً:

- يا رب العالمين! لن تجربؤي على هذا بكل تأكيد.. فلن تكون حتى لشخص مجنون الشجاعة للإقدام على عمل كهذا! عليك أن تعرفي يا عزيزتي أنني الآن وبعد أن عرفت كل الوقائع، لن أسمح لك بهذا.

مادت السجادة أمام عينيها وقالت بصوت مخنوق:

- أعرف .. وأشعر براحة كبيرة .. فلم أكن واثقة من قدرتي على المحاولة .

مال نحوها يطبطب علی کتفها:

- ليس الانتقام من شيمك راوينا، فليس في روحك ذرة شر.

۔ ماذا ستقول لسكوت؟

- القليل .. قدر المستطاع . الآن بعدما تأكدت من عدم إقدامك على الشر أجدني غير مضطر لإخباره بما ذكرته لي .. ولكنني أظنك مدينة له بتقديم تفسير مناسب ليمتنع عن إعلان الخطوبة في حفلة هذا المساء .. أليس كذلك؟

هزت رأسها بيؤس وهو يقف مردفاً:

لا شك أنك سترتاحين وهو سيراتح أيضاً لوضع حد لهذا الموقف الحرج. محاولة مساعدة أخيه أمر وإلزام سكرتيرتي الشمينة وإشراكها في مؤامرة، أمر آخر.

توسلت إليه :

- لا تذكر أنني موظفة عندك . سأغادر القصر باكراً صباح الأحد .

ولك بعد رحيلي أن تخبره بما تشاء ..

— سأتجنب التطرق إلى الموضوع وإن حدث أن طرح سؤالاً مباشراً

فسألوه إلى رد غامض مهما كان الأمر صعباً عليّ.

- شكراً لك سير دوغلاس... يبدو أنني سأشكرك على ما تفعله من أجلي.

وصممت بائسة...

أحسن السير دوغلاس بتعاطف مع الفتاة المسكينة التي تختلف كل الاختلاف عن تلك السكرتيرة الكفوّة التي اعتاد التعامل معها وقال لها بوقار:

- أنا آسف لأن الأمور لم تكن على ما يرام بالنسبة لشقيقك! ارتفعت كتفها بهزة كثيفة:

- إذن، كنت على حق. إنه سكوت الذي حال بين هوارد وبين الوظيفة.

رد مقطباً:

- أجل... لقد نجح شقيقك في المقابلة ولم يكن تعيينه معلقاً إلا على توصية سكوت التي حين وصلت أحدثت خضة في المكتب... أخشى راوينا ألا يكون رأي سكوت بأخيك جيداً.

تحرك في نفسها الإحساس القديم بالعداء، فوقفت تلملم ما تستطيع من وقار، وردت ببرود:

- أشكرك للمحاولة سيدي.

أثناء توجهها إلى الباب، توقفت ثم التفتت إليه لتضيف:

- على فكرة، أنت لم تقل لي سبب مجيئك إلى القصر. ابتسم:

- أوه... هذه ليست رحلتي الأولى إلى هنا... فأنا أتمتع كثيراً بصيد السمك في أملاك كالدونيان. لذلك، ما إن استدعيت ديدر إلى جانب عمتها المريضة مرة أخرى حتى قررت الانضمام إلى أصدقاء كانوا قد ذكروا لي أنهم قادمون إلى هنا.

- بهذه البساطة...

تنهدت ولكن لم يعرف ما إذا كان تنهدا ارتياحاً أم ندماً.

- بالضبط... لذلك ترين عزيزتي، كم من السهل تعقيد الحياة،

فشيء بسيط قد يقود إلى آخر عظيم.

أمضت راوينا ما تبقى من يومها في غرفتها تشعر بالجبين من مواجهة سكوت، وما سيطرحه عليها من أسئلة. ولكن أثناء مرور الساعات الثقيلة الوطأ التي قضتها في القراءة والتهيو للحفلة، كان تحذير السير دوغلاس يثقل كاهلها... «يجب أن يلغى إعلان الخطوبة». وعليها بأسرع وقت اختلاق عذر معقول. راحت تفكر ملياً في حل حتى أخذ رأسها يؤلمها. ولو كانت تملك شيئاً من الشجاعة لرمت حقيبتها في صندوق سيارتها ولهربت بدون أن ترى سكوت مرة أخرى. ولكن هذه الطريقة طريقة جبانة وأضف إلى ذلك أنها رغم خوفها من النتائج، لم تكن تملك من الإرادة ما يجعلها قادرة على الرحيل بدون أن تلتقيه مرة أخيرة.

أنهت ارتداء ملابسها، ثم دنت من المرأة الطويلة لتقوم النتيجة. حدقت إلى صورتها فرأت الفستان الذي اختارته: كان عالي الياقة طويل الأرداف، لا يظهر ذرة واحدة من كتفها الناعمة العاجية اللون. ولكن القماش أضفى جمالاً على قدها الميَّاس وقامتها الرشيقة فانسدل برقة وانسياب. كان ثوباً قد أثار صيحات الأوه والآه، ولهذا اختارته، فقد أرادت الثقة بنفسها لتجد ما يدفع نفسيته المذعورة إلى مواجهة سكوت.

عبست، غير راضية عن الصورة الطفولية التي يقدمها الشعر الفضي على كتفيها فمدت يدها لتتناول ملقط شعر الماسي كان هدية وداع من زوجة رب عملها. تفرست فيه ملياً:

- هم... هكذا أفضل.

رضيت عن المظهر الصارم الذي أضفاه عليها وضع الكتلة الفضية في الملقط، ولكنها رغم ذلك تمت لو كان لديها وقت لترتب حلقات من شعرها فوق جبينها ووجنتيها. استدارت نافذة الصبر تقول لنفسها: - أوه... يكفي هذا!

ذعرت عندما سمعت نقر إصبع على الباب: - من الطارق؟

زودتها الحاسة السادسة بالرد قبل أن تسمعه. - سكوت... هل لي أن أدخل؟

استدار مقبض الباب ودخل قبل سماع الرد... أما هي فذعرت لأنه سرعان ما قطع المسافة الفاصلة بينهما. كان يبدو وسيماً حتى وهو مرتد بنظرون العمل فكيف الحال وهو مرتد بذلة سوداء رسمية. بدا شعره الأشعث عادة ممسداً وبدت قسماته السمرء بارزة بحدة أمام قميصه الأبيض وأكمامه الذهبية أزرارها، وربطة العنق الرائعة. وكان أن أحست أنه ليس جذاباً فقط، بل أرستقراطياً عريقاً. واللييلة لم يكن رب عملها مصدر العذاب، المعادي، بل المركيز كالدونيان الذي تحس معه اللييلة بالخجل الشديد.

- قبل أن ننزل... هناك ما يجب أن نتباحثه.

انتفضت مذعورة لأن في نبرة صوته حزماً لا يعكس أيّاً من العواطف التي أطلقها في وقت سابق... فتراجعت إلى الورااء قائلة:

- ألن تجلس؟ سرتني قدومك لأنني أيضاً أعاني من مشكلة تقلقني.

لاقت دعوتها أذناً صمّاء ونظرة ممعنة في جمال الشكل المائل أمامه... تصاعد اللون إلى وجنتيها عندما راحت عيناه تستكشفانها... وفكرت! إنه كالذواقة الذي ينتظر تذوق طعم طبقه المغري الخاص.

أغضبها مزاجه المكبوت، فقالت:

- أنت أولاً... كيف لي أن أخدمك؟

- بأن تجلسي... على أن يكون ذلك خلف لوح سميك.

جلست لا استجابة لطلبه الساخر بل لأن ساقها كادت تنهاران. بدا أنه يقوم بجهد كبير ليجمع شتات أفكاره، ولكن ما إن حاول البدء في الكلام حتى تراجع وقال:

- لا... سأسمع كلامك أولاً.

كبحت رعشة توتر مردها غضبه ولكنها تاقّت إلى التخلص من عقدة ذنبها.

- حسن جداً. لقد غيرت رأيي بخصوص إعلان الخطوبة. كانت فكرة سخيفة. ولا أدري لماذا...

- ألا تدرين؟ إذن، هل لي أن أذكر لك السبب؟

شهقت بريية لأنها خشيت أن يكون لسان السير دوغلاس قد زلّ. - أتعرف؟

- كنت غيباً لأنني لم أعرف السبب قبل الآن. أتظنين أنني أعمى وأصم وفاقد قوة التفكير والإدراك؟ لقد شاهدت تأثير السير دوغلاس لستر فيك كما شاهدت توقك الشديد لمعرفة إذا كانت زوجته برفقته أم لا... إنه الرجل الذي في ماضيك... أليس كذلك؟ إنه السبب وراء سعيك إلى وظيفة من الدرجة الثالثة رغم كفاءتك ومؤهلاتك في عالم السكرتاريا! واضح أن الموقف بينكما أصبح محرّجاً، ولقد سألت دوغلاس فإذا مراوغته في الرد تزيد شكوكي. أخبريني الحقيقة، إلى أي مدى كنت تعرفين دوغلاس قبل قدومك إلينا؟

اختبرت ألماً هائلاً راح يتضخم، وتسارعت في عقلها المشلول هذه الفكرة العجيبة التي لم تكن السبب في الألم الجسدي الذي تشعر به. ثم لم تلبث أن أدركت أن الألم ليس خيالياً بل واقعاً. أما سيبه فضغط أصابعه الوحشي على كتفيها، وكان عليها أن تتكلم... أو بالأحرى كانت مجبرة على الكلام! ولكن إن تكلمت فقد تجد الراحة من الضغط

المتزايد الذي سيزداد حتماً ما دامت صامته . بدا لها في تلك اللحظات قادراً على تحطيم كل عظام جسدها وهو ممتنع بما يفعل !

- حسناً . . ! هذا صحيح . . أعرف السير دوغلاس جيداً . . كان وما زال رب عملي . . أو . . لم أعد أدري شيئاً . . .

- رب عملك . . وماذا غير هذا؟

اشتد ضغط أصابعه، حتى كاد يغمى عليها . ولكنها من مكان بعيد سمعت صوته الخفيض الوتيرة، المشتعل غضباً وريبة . . أرادت أن تصرخ منكراً، لتؤكد له أنه استنتج أشياء خاطئة . ولكن الألم جعلها تفقد النطق . . ثم راح العذاب الجسدي يخفّ تدريجياً عندما اخترقت تفكيرها فكرة ما . لماذا تحرره من وهمه؟ قد يكون هذا هو الحل الذي كانت تسعى إليه ليفسخ الخطوبة؟ وسيكون مسروراً بهذا العذر . . فهو مهما ادعى شغفه بها لن يقبل أن يأخذ ما تخلص منه رجل آخر!

فجأة أصبح قريباً منها بشكل مخيف فراح يهزّها وعيناه تقدحان شرراً حتى وقع المشبك الماسي عن شعرها:

- لا أدري كيف تعترفين بأنك كنت عشيقة رجل، ومع ذلك تبدين كفتاة بريئة نظيفة لم تمسّ . الرجل ينفع أن يكون والدك!

هزّها مجدداً حتى أصبح شعرها ستارة فضية أمام وجهها ولكنها تجرأت على القول بصوت مخنوق:

- هل أفهم من هذا أن خطوبتنا لن تُعلن؟

- بل أقسم أنها ستعلن! ديدر لستر امرأة غالية على قلبي، شخصية رائعة تثق بزوجها كثيراً. لا شك عندي أن دوغلاس نفسه قد عاد إلى تعقله في الوقت المناسب وحاول وضع حد للعلاقة. ولكن، ما إن عاد إلى برائك، حتى صممت على إغوائه مرة أخرى! حسناً، اعلمي أنني لن أسمح لك بإيذاء ديدر . . خطوبتنا ستعلن كما هو مخطط لها الليلة . . وسيسمعها دوغلاس كما ستسمعها المنطقة كلها. إنه سيد

مهدب ولن يحاول خداعي تحت سقف بيتي . . لذا لن أقلق . . لكن لو تجرأت . . .

أمسك حفنة من شعرها الفضي وشده حتى أصبح وجهها المتألم على بُعد إنش من وجهه، وكرر بتهديد:

- إن تجرأت على إنكار خطوبتنا أو حاولت الهرب فسألحق بك

مطارداً إياك من بلدة إلى بلدة، ومن مقاطعة إلى مقاطعة ومن بلد إلى

بلد، وحين أعيد قبضتي عليك ستكتشفين، إلى أي حد طبيعة السلتي

البدائي بربرية خالية من الإنسانية!

- أحمد الله، لأنني لن أضطر إلى مواجهة وجوه هذه القبائل
المعادية ثانية!

على الرغم من أن هذا الجو شمل القاعة كلها حتى كادت تلمسه
بيدها، اضطرت بعد لحظات إلى الظن بأنها كانت تحلم.
عندما قدّمها سكوت بحركة بارعة من يده على أنها عروس
المستقبل بدت أشبه بوردة تطلّ من بين الأشواك. فارتفعت أصوات
ودود ترحب بها، وتلقّت مصافحات كانت قاسية حتى كادت تسحق
يدها، فكذبت شكوكها بالصدق، أما النساء الأنيقات والرجال
المهذبون فراحوا يقدمون تهانيهم بتمدن.

كان الاحتفال في أوجه عندما تمكنت من تبادل بضع كلمات مع
السير دوغلاس. . . كانت قد ابتعدت للحظات عن سكوت وفي هذه
الأثناء رأت ربّ عملها يقترب منها حاملاً كوباً، قدمه إليها مبتسماً:
- اشربي هذا عزيزتي تبدين بحاجة لما ينعشك.

- وهل اضطرابي واضح إلى هذا الحد؟

- على العكس. لقد تماكنت نفسك بشكل مثير للإعجاب. لكن،
ألم أحذرك من مغبة السماح بإعلان الخطوبة؟ ألم تعديني بنسيان الأمر؟
فلماذا غيرت رأيك؟

- لم يكن القرار بيدي سير دوغلاس. . . من المهم جداً أن
نتحدث. . . هناك ما يجب أن تعرفه، ما سيصيبك بالصدمة. . . لكنني لن
أستطيع الشرح هنا. . .

ارتفع حاجباه:

- إذن. . . من الأفضل أن نجد مكاناً لا يسمعنا فيه أحد.

وضع يده على مرفقها، استعداداً لاصطحابها بعيداً. . . ولكن ما إن
ابتدأ التحرك حتى قاطعهما سكوت:

- أرى أنك تؤمن بساعات الليل المغرية دوغلاس.

١٢ - وخسرت اللعبة

دنت راوينا من الجماعات المحتشدة بوقار ملكة، فبدت أشبه
بورثة ملكية اسكتلندية شابة تساق إلى المقصلة.

كانت الأنوار عندما هبطت الدرج الكبير برفقة سكوت تتحول إلى
السنة نار فضية كلما وقعت على رأسها الشامخ بشجاعة. . . تزن كل
واحدة من تلك الثريات الضخمة ما يزيد عن المئة بوند، لها فروع على
شكل دلافين وحوريات بحر. وكلها من الفضة وهي معلقة بحبل يبدو
رفيعاً، وهذا الحبل يتدلى مباشرة فوق السلم. أثناء نزولها هذا،
ارتفعت عينها برجاء متمنية لو ينقطع هذا الحبل فينتهي عذابها. ولكن
السلك الرفيع الذي تحمّل عبء القرون لم يستجب لها. وتابعت
خطواتها نزولاً نحو بحر العيون الذي كان يتأمل بفضول واستغراب
الفتاة الانكليزية التي سحرت صاحب السعادة، وجعلته يحنث بقسمه
الذي طالما سبب الإحباط للنساء والندم للرجال.

ذعرت راوينا من العيون الباردة، فما من زوج منها يريد لها هنا. . .
إنّ ربيتهم بالانكليز أعظم من السماح بالتساهل حتى مع عروس
الماركيز الوشيكة. مضت قرون كثيرة على معاهدة الاتحاد بين
اسكتلندا وبريطانيا، ومع ذلك ما زال الانفصاليون الاسكتلنديون
يرتابون بالانكليز ولا يثقون بهم بل هم إلى ذلك يضمرون لهم الكراهية
والعداء. . . رددت من بين أنفاسها:

بدت الحيرة على السير دوغلاس :

- أخشى أنني لم أفهم الملاحظة .

نظر سكوت إلى صديقه نظرة فولاذية :

- لا حاجة للتظاهر . . . لقد انتهت اللعبة . . ألم تخبرك حتى اللحظة؟

في تلك اللحظة، تحلق جماعة من الشبان راحوا يحثون سكوت على الانضمام إلى قطار راقص يدور بين القاعة والردهة بصخب مجنون . تجاهل الجميع رفضه الصارم بروح الشباب، واستجابوا للدعاء راوينا الصامت بإيعاده عن الأنظار .

أمسكت بكم ستره السير دوغلاس :

- بسرعة . . أعرف مكاناً نستطيع التحدث فيه على حدة دون أن نخشى من اكتشاف مكاننا . . الحق بي !

أسرعت به إلى الخارج وهناك طلبت منه الانتظار لحظة لتدخل مكتب سكوت الذي عادت منه وهي تمسك بمفتاح المنزل الصيفي . لحق السير دوغلاس بها دون أن يسأل وبقياً صامتين حتى دسّت المفتاح في القفل القديم . ثم دخلت إلى المنزل القديم، تحته على اللحاق بها .

ما إن أصبحا في الداخل حتى أطلق العنان لفضوله :

- أنا واثق راوينا، أن ما ستقولينه في غاية الأهمية، لكن لماذا الحاجة إلى هذه المساوية . . ألم يكن بالإمكان الحديث براحة داخل القصر؟

- ما كان سكوت ليسمح لنا بالبقاء معاً . ولهذا اخترت هذا المكان فهو لن يفكر فيه أبداً . . أتعلم سير دوغلاس أنه يعتقد أن بيني وبينك ما هو أكثر من علاقة رئيس بسكرتيته . . وقد أقنع نفسه بأن سعادة زوجتك في خطر، وأصرّ على إعلان الخطوبة لأنه يحتقرني بعمق . .

وما إن تبتعد عن القصر حتى يرميني خارجه بالقسوة التي كان يكتفها أسلافه للانكليز !

تهاوى على الكرسي الخشبي، لا يستطيع الكلام . . أما راوينا فدنت من النافذة الخالية من الزجاج لتتنظر إلى الليل ولكنها سمعت شهقة تعجب طغت على خرير المياه المتدفقة في الأسفل . لم تلتفت إليه حين سألها صوته المشبع بالصدمة .

- لكن لماذا لم تنزعي أوهامه عن مثل هذه الفكرة السخيفة؟ من السهل إثبات خطئه . . ديدر نفسها يمكن أن تؤكد له . . .

- إنه يريد أن يصدق الفكرة . . أرجوك سامحني سير دوغلاس . .

أعلم أنه لا يحق لي زجك في هذه المشكلة، ولكنني أراه الحل الأمثل . فتركه أرجوك يعتقد أن شكه صحيح . قبل بضعة أيام اعترف لي بأنه يحبني، وأعتقد أنني إذا صدمته تخلى عن ذاك الحب . ألا تظن هذا؟ الأمر يستحق المجازفة مهما كان رأيه وضيعاً بي، فقد يريجه هذا من ثقل أحماله . كان يعاني منذ سنوات عذاباً شديداً من جرّاء فكرة تصوّر له أنه من غير العدل أن يطلب من امرأة الزواج . . وكان بإمكانني أن أقول له إن ما يقال لها لعنة آل سايتون ليست سوى ضعف وراثي سببه رطوبة الجو داخل القصر . . . وبسبب شوقي للانتقام، أنكرت عليه الراحة، وتركته يستمر في الاعتقاد أنه لن يستطيع أن يكون أباً لطفل . . ألا تظن أن هذا خبثاً مني أستحق عليه العقاب . . ؟ ألا تظن أنني أستحق العذاب؟

قفز السير دوغلاس واقفاً :

- يا ابنتي العزيزة . . لا أدري من أين حصلت على هذه المعلومات . . أجرى سكوت منذ سنوات فحوصات كاملة، فقليل له إن عرجه نتيجة ضعف عضلات لو عولجت في الوقت المناسب لأمكن شفاؤها . أذكر تماماً غضبه على والديه اللذين تقع على كاهلهما

مسؤولية عاهته. لا أدري إن كان يعلم أن الرطوبة داخل القصر هي عامل مساعد، ولكنني واثق من إزدرائه لخرافة اللعنة العائلية. نظر إلى صمتها وذهولها فتساءل عن الأفكار الكامنة وراء مظهرها وذهولها. أخيراً قالت:

- أيمن أن تعيد كلامك... ببطء... لا... لا تزعج نفسك... لقد سمعت جيداً...! أتدرك ما يعني هذا؟ لقد دبر لي عمداً مكيدة ليظهرني غبية فقد ذكر لي أكاذيب كثيرة ولعب دور الحبيب المفجوع... وهو طوال الوقت...

صمتت وهي تشعر بالخزي والعار.

تحرك السير دوغلاس بقلق:

- أنت دون شك أفضل حكم على هذا عزيزتي. أنا شخصياً لا أستطيع التفكير في ما يدعو سكوت إلى... قاطعته:

- وأنا أيضاً لا أستطيع! ولكنني سأعرف بكل تأكيد.

بعد لحظة واحدة لم يستطع السير دوغلاس أن يرى منها سوى وهج فستانها المتطاير خلفها، وهي متجهة إلى القصر. عاد إلى الجلوس على المقعد الخشبي، ليأخذ سيكارة من علبة في جيبه الداخلي، ثم تمت بدون وعي وهو يشعله قولاً قديماً: شرُّ البلية ما يضحك!

تنهد مشفقاً على سكوت الذي يوشك أن يكتشف أن المرأة نادراً ما تسامح الرجل الذي يجعلها تحمرّ حرجاً.

لم تجد راوينا صعوبة في إيجاد مكان سكوت الذي كان يجوب الحديقة بحثاً عنها... وما أن تقابلا حتى صاحبا معاً بغضب:

- أين كنت؟

- أريد محادثتك!

- سندخل إلى مكتبي.

أمسكها بمرفقها وبدأ يقودها إلى الداخل وهو يصرّ على أسنانه، أما هي فكبحت غضبها، ولكن ما إن أصبحت في المكتبة حتى التفتت إليه ونار الإذلال في أوجها:

- أيها الغشاش، الكذاب الوقح المجرد من الضمير! كنت تعلم منذ سنوات أن لعنة سايون ليست سوى خرافة، ومع ذلك خدعت الجميع وجعلتهم يظنون أنك مؤمن بها. ولم تكتفِ بذلك فحسب بل ادّعت وقوعك في حبي، ومثلت دور الحبيب الحزين ببراعة وجعلتني فعلاً أبدأ بالأسى عليك! لماذا فعلت هذا؟ ألا أنك تحصل على سعادة ما عندما تبني المرأة آمالها عليك؟ هل إشفائك على نفسك كبير إلى درجة الحاجة إلى اجتذاب أكبر قدر ممكن من شفقة النساء عليك؟ أم، وهذا أكثر احتمالاً، أنك شيطان سادي النزعة تتلاعب بعواطف النساء وشفقتهم الغريزية موظفاً عجزك كمساعد على الإغواء؟

رد ببرود:

- شيء من هذا القبيل.

صدمها اعترافه الذي صرّح به بطريقة مهينة غير مبالية. كان غضبه أثناء إصغائه إليها قد برد فلما التوت شفتاه بسخرية شهقت غاضبة:

- وتجروؤ على الاعتراف!

- بالطبع أجروؤ. كما كانت النساء في الماضي يجروؤون على خداعي بعاطفتهم المزيفة وبمشاعرهن الكاذبة وبتزلفهن عليّ، رائيات حالتي، محاولات إغوائي على أمل أن أتزوج بهن! أخيراً تمسكت بلعنة سايون كنوع من الدفاع... ولقد أثبت هذا الدفاع جدارته، خاصة بالنسبة إلى فتاة إنكليزية خلت يدها ممن يصرف عليها، ووجدت أنني قد أكون أفضل ما تحصل عليه. فتاة ادّعت أنها تحبني، ورمت نفسها بين ذراعي على أمل أن يذيب بكاؤها الحديد الصلب المحيط بقلبي،

فتاة لم تستطع إخفاء بريق الانتصار حين ظنت أنها نجحت .
رمى القفاز في وجهها منتقماً بحقد كبير فلم تستطع سوى التحديق إليه . . . ابتسم ابتسامة كريهة وقال مردفاً :

- ما بك عزيزتي راوينا . . ؟ هل دهشت حقاً لأنني لست ذلك الساذج الذي ظننت؟ هل ظننتني حقاً فاقداً الذكاء فلا أتساءل عن سبب إقدام فتاة تملك مؤهلاتك كلها إلى استلام وظيفة من الفئة الثانية مع العلم أن قدرة واحدة من قدراتك لو ملكتها أية فتاة لحصلت على ما تشاء من راتب، أفلا أتساءل عن سبب رضائك عن العمل في مكان هادئ بضمن بخس؟ كان الوضع سيبقى مدعاة للتساؤل مني لولا قدوم دوغلاس لإلقاء الضوء على الأمر . كنت أقرأ قبل أسابيع الكراهية على وجهك كلما التقت عيوننا، كنت أحسن نفورك مني، وحيرتني الادانة التي كانت تشوب صوتك كلما خاطبتني . مع ذلك، وبين ليلة وضحاها تبدل تصرفك . أتوقعت مني أن أتجاهل دلائل كرهك السابقة، وأصدق أنك تحبينني؟ . . . لا . . . عزيزتي راوينا . . أنت فاشلة مسكينة . اعترفي بهذا . . لقد لاعبتك بلعبتك نفسها وخسرت .

وصلها التوبيخ الساخن عبر ضبابية من العار ولكنها رغم ذلك واجهته بجفاء، فأطلقت آخر طلقة لديها على المركز المنتصر :

- يا لمكرك! أنت على حق إلا في شيء واحد!

- أوه؟ وأين أخطأت؟

- أخطأت الظن بالسير دوغلاس . . فلم يحدث أن تجاوزت علاقتنا علاقة الرئيس بسكرتيرته . . . أما دوافعي للمجيء إلى هنا فمحضر شخصية . . . لدي حساب يجب أن أصفيه معك، بسبب خطأ شنيع اقترفته بحق أحد أفراد عائلتي . . خطأ دفعني للقدوم إلى قصرك وعلى عزم للانتقام منك . على أي حال، لسنا جميعاً قساة القلوب مثلكم أيها الاسكتلنديون، خاصة حين يكون الأمر على قاعدة العين بالعين . .

ولست أخجل من أن أعترف بهذا . . . لو كنت أنا المنتصرة لشعرت بأنني أسوأ حالاً مما أنا عليه الآن .
أحست باهتمامه ما إن ذكرت الانتقام . . كانت كلمة فهمها جيداً .
كلمة لا بد أن تثير شففته!

- ذكرت أن هناك شخصاً من أفراد عائلتك . . فما علاقتي به؟
- إنه أخي الأصغر الذي كان موظفاً لديك . . كان شاباً تتوق نفسه إلى أن يبدأ حياته ولكنك دفنت حماسه وأطفأت شعلة روحه حين تركك ليفتش عن رب عمل ألطف منك . . شئت مستقبله بتوصيتك التي وصفته فيها وصفاً كريهاً، وزرعت فيها حقدك . إنه هوارد بنجمن . . أتذكره . . أم أنه مجرد ذبابة سحقها حذاؤك الملكي المتعجرف؟

أحست مرة أخرى بالخوف من الكراهية التي ظهرت على وجهه عند ذكرها اسم أخيها :

- أذكره . . ؟ أجل أذكره جيداً . . بل لدي هنا في أملاكي ما يذكرني به جيداً وذكره للأسف تنفص عيشي لأنني غضضت النظر عن فم ضعيف، ونزوة مستهجنة وشخصية غير سوية . لذلك من غير المحتمل أن أنسى أبداً وجود أخيك هنا!

تقدم منها فجأة فذعرت وأمسك كتفها بأصابعه :

- تعالي معي!

ما إن صدمت لهجته الآمرة أذنيها حتى أحست ببرودة الموت . . . في داخل هذا «الطاعون الأسود» يسكن شيطان إرادته من حديد، ولكن هذا الشيطان أصبح الآن مفرطاً في العنف .

لم يهتم بفستانها الرقيق، أو بصندالها الخفيف بل راح يدفعها بقسوة إلى الأبواب الزجاجية، ومنها إلى الحديقة . كانت يده قابضة على مرفقها، يجبرها على اللحاق بخطواته السريعة . أما هي فخافت أن

تسأل أو تحتج، وبقي يجرها بكل حقه إلى ما وراء القصر ومن هناك إلى ممر قادهما إلى أكواخ مبشرة تأوى عائلات عمال الأملاك... كانت المنازل بعيدة بحيث لم يبدُ منها إلا أنوار تتلألأ في سماء الليل المظلم... ما إن بدأت تحاول الاحتجاج، حتى علق كعب صندالها الرفيع بين حجرين كبيرين، فخرت على ركبتيها فوق الطريق الوعرة. ولكنه رفعها بخشونة لتقف مجدداً، ثم دون كلمة اهتمام أو قلق تابع سيره.

- أرجوك قف! لقد التوى كاحلي حين وقعت!

بدا أنه لم يسمعها... وكأنما يقوده تهور عنيف طائش أجبرها على المضي في السير. لم يكن مهتماً لتمزق فستانها أو لامتلاء صندلها بالوحل، أو لشهقات الألم التي كانت تخرج من رثتها... تعثرت عشرات المرات على الطريق الذي امتد ميلاً، وفي كل مرة وقعت فيها كان يرفعها لتقف مجدداً بدون كلمة عطف أو شفقة. وظلت على هذه الحال حتى وصلت أمام باب كوخ مطلي بالأبيض، يقود إلى حديقة صغيرة وهناك تحديداً كادت تصرخ إرهاقاً وغضباً... عندما خطا خطوة إلى الداخل تمسكت بالسياج الخشبي، وجمعت أنفاسها لتحتج للمرة الأخيرة:

- لا يمكنني الدخول إلى هنا! انظر إلى ثيابي وإلى صندالي...!

فعل لأول مرة ما طلبت منه فنظر إلى وجهها الشديد الاحمرار من التعب، وإلى جبينها الذي لُطخ بالوحل حينما حاولت رفع خصلة إلى مكانها باليد التي اتسخت من الأرض التي وقعت عليها مراراً... قال لها:

- ما من أحد في الكوخ سيهتم بمظهرك... فليهم أمور خطيرة تشغل بالهم.

دفعها عبر الممر إلى الكوخ، ثم بعد أن دق الباب بقسوة، أمسكها

بحزم لئلا تتمكن من التراجع... حين انفتح الباب تعرفت على الرجل الذي فتحه فهو العامل الذي تراه دائماً قرب القصر... قال اللورد:
- مساء الخير جيرامي... آسف على زيارتي في مثل هذه الساعة المتأخرة... أيمكننا أن ندخل؟

تراجع الرجل مستغرباً:

- بكل تأكيد سيدي اللورد. أنت على الرحب والسعة في أي وقت.

هز سكوت رأسه شاكراً، ودفع راوينا إلى الداخل مستعيداً قبضته المؤلمة عليها ليجرّها من الردهة الصغيرة إلى الغرفة الرئيسية التي هي غرفة جلوس دافئة منمنمة، فيها أريكة مغطاة بقماش قطني، ومقاعد مريحة ورفوف حافلة بالكتب، وطاولة تحمل مصباحاً يضيء وجه صبي صغير منهمك في كومة أوراق. كانت امرأة تجلس على أحد المقاعد سرعان ما وقفت حين دخلا، عيناها البنيتان اتسعتا دهشة لرؤية الحالة التي عليها الزائرين. ولكن حسن الأخلاق منعها من التحديق، لذلك، وبعد تحية خجولة، أشاحت بوجهها، متظاهرة أنها لم تلاحظ حالة عروس اللورد.

تقدم سكوت إلى جانب الصبي فوراً:

- كيف تشعر اليوم ستيفن... أهو يوم جيد على ما أرجو لأنك تحرق زيت منتصف الليل في هذا القنديل؟

حين ارتدّ الصبي عن الطاولة لاحظت راوينا برعب مصدومة أنه في كرسي متحرك. لم يكن سنّه يزيد على أربعة عشرة سنة، له شعر أحمر وضحكة مرحة، ولكن تحت وجنتيه الحمرانين كان هناك شحوب مرض لم يكن بعيداً.

قاطعتهما الأم بلكنة اسكتلندية حادة:

- كان متألماً اليوم... لكنه أصرّ على العمل هذا المساء... لذلك

وحتى لا أتعبه بالجدال، تركته يفعل ما يحلو له.
نسيت راوينا حالتها، فانحنت تتفحص الأوراق:
- ماذا تدرس؟

ابتسم الصبي بخجل:

- مواضيع مدرسية، التاريخ الانكليزي هذا المساء. أحاول دراسة
موضوع مختلف كل مساء... ولكنني رغم ذلك ما زلت متأخراً كثيراً
في دروسي وأخشى ألا أستطيع المتابعة.

انخفض نظرها إلى الغطاء الذي يغطي ركبتي الصبي. ترددت في
السؤال ولكن والد الصبي ردّ على ما لم تنطق به:

- لابني ذكاء غير عادي آنسة. كل الأساتذة كانوا يتنبؤون له
بمستقبل لامع. ولكن، قبل بضعة أشهر، صدمته سيارة كانت سبباً في
عطب عموده الفقري. نشكر اللورد لأن ابني تلقى العناية على يد أفضل
أخصائيي البلاد، وهناك أمل بأن يسير في النهاية، ولكنه بسبب آلامه
ومرضه لم يستطع متابعة دراسته أشهراً. والآن بسبب شعوره بتراجع
مستواه الدراسي يبدي توفقه إلى الدراسة ما وسعه إلى ذلك سبيلاً.

أحست ببرودة أثلجت دمه... فهمست برعب:

- يا لهذه المأساة المرعبة! ما أشدّ أسفي على هذا الحادث!
قاطعها سكوت:

- لم يكن حادثاً... بل عملاً إجرامياً نتيجة عدم مسؤولية! كان
سائق السيارة موظفاً عندي يومها، لذلك أحسست طبعاً بمسؤوليتي
الجزئية.

صاح الوالدان معاً:

- ما كان عليك تحمل المسؤولية سيدي اللورد!

- لم تكن غلطتك.

لكنه تابع:

- أشعر أنها مسؤوليتي... كنت أشعر بأنه غير ناضج وبأنه شخصية
غير سوية ومع ذلك أعطيته عملاً على أمل أن يريحني من عبء العمل.
لكن، تبين لي فيما بعد أنه عبء عليّ أكثر مما هو عون. فهو كسول
غير كفء، يحنّ دائماً للعودة إلى الأضواء التي خلفها وراءه... كان
يسعى إلى الانحراف في البلدة ليلة الحادثة... فبعد قضاء ساعات في
إحدى الحانات، عاد إلى القصر في حالة إرهاق، وكان يقود بسرعة
جنونية في آخر جزء من الطريق ولكنه كبج السيارة متأخراً فلم يتفاد
صدم ستيشن الراكب على دراجته.
تنهدت الأم:

- لم يكن ستيشن غير ملام، فقد برز إلى منتصف الطريق بسرعة
ليدخل من باب الحديقة.

- هذا ما عرفناه بعد التحقيق الذي تلا الحادث. لكنني ما زلت
أصرّ أن السائق لو التزم بتعليماتي المتعلقة بعدم السرعة في حدود
القصر، لاستطاع تجنب الكارثة. أنا أعلم جميع من أوظفهم بهذا
القانون وعليهم إطاعتي. أما السائق فكان محظوظاً لأنه نجا بسهولة من
الإدانة. لكنه كان يخلو من الضمير... ففي مرحلة من المراحل كان
من الصفاقة بحيث هددني بإقامة الدعوى ضدي لأنني صرفته تعسفياً!
وكان من حسن الحظ أن غير رأيه!

سألت راوينا وقد اشتد شحوبها لأنها تحسّ بثقل كبير يجثم على
قلبها:

- من كان الرجل؟

ردت الأم:

- كان اسمه هوارد بنجمن.

لم تكن تدري أن كلامها المنخفض الوتيرة جاء كالخناجر غرزت

عميقاً في جروح العذاب . . . هزت رأسها تكمل :
- إنه شاب جنوبي . . . يشبهك كثيراً آنسة . . . لكنه قاسي ، حقود ،
مخادع . وهذا ما لا يمكن أن تتصف به سيدة لطيفة مثلك .

١٣ - الصيادة في الفخ

- إلى أين أنت ذاهبة آنسة هافر شام؟
جاء الصوت الصغير من وراء راوينا ، فأفقدتها صوابها ومنعها من
الوصول إلى الدرج الذي سيؤمن لها سبيل الفرار من قصر كالدونيان .
استدارت ، تضع إصبعها على شفيتها :
- ريموس ! ششش ! لا توقظ القاطنين في المنزل ، أنت ولد طيب .
بدت إمارات الذعر في عينيه :
- لماذا تحملين حقائبك؟
وضعت حقيبتها من يدها على مضض ، وانحنت إليه هامسة :
- تعال إلى غرفة نومك لأشرح لك . لم أشأ الذهاب بدون
توديعك . . لقد تركت لك رسالة . . فقد ظننتك غارقاً في النوم .
- أتفكرين في الرحيل؟
ظلّ جسده رغم ارتجاف شفته السفلى مستقيماً وكأنه ينوي منعها .
وضعت ذراعها حول كتفيه ، وصحبته إلى غرفة نومه ، مقفلة الباب
وراءهما وهناك حافظت على انخفاض وتيرة صوتها :
- أنا آسفة ريموس إنما يجب أن أعود إلى لندن . أعدك أن أبقى
على اتصال بك ، أما أنت فعليك مراسلتي أسبوعياً لتقص علي أخبارك .
ألن تفعل؟
- لا أريدك أن ترحلي ! قالوا إنك ستتزوجين عمي سكوت وتبقين

هنا إلى الأبد . . كنت سعيداً بك وبعمي . ولكن لن يدعك ترحلين .
أعرف أنه لن يدعك ! سأذهب وأحضره ليقول لك هذا بنفسه .

- لا . . ريموس ، لا تفعل هذا . . أرجوك ريموس . . حاول أن تفهم ! لا أريد أن أتركك ولكن حين تكبر ستدرك أن الظروف في أكثر الأحيان تجبر الكبار على فعل ما لا يرغبون فيه . أرغب كثيراً في أن أزيد من شرح الأمر ولكنني لا أستطيع . . إن كل ما أستطيعه هو أن أطلب ثقتك ومساعدتك حتى أبتعد . يمكنك مساعدتي ريموس ؟ سأكون شاكراً لك لو ساعدتني .

لم يذهب توصلها إلى رجولته هباء ، وأحست بتحطم قلبها وهي تراقب كتفيه النحيلتين ترتفعان باستقامة تحت سترة بيجامته .
- ماذا تريدان أن أفعل آنسة هافر شام ؟

- لن يكون الأمر سهلاً ريموس . . أريد منك أن تعود إلى فراشك وألا تذكر هذا اللقاء أمام أحد . إن سألك أحد ، عليك ألا تكذب بالطبع ولكنني أفضل أن يبقى رحيلي سراً ولو لبضع ساعات تخولني الوصول إلى الحدود .

بعد صمت طويل ثقيل ، مسح خلاله دمعيتين ضخمتين تدرجتا على وجنتيه ، همس :

- حسن جداً . . لكنك ستراسلينني ؟ سأنتظر ساعي البريد يومياً لأرى إذا كان يحمل لي رسالة !

كادت راوينا تنهار وهي تحتضن الجسد الصغير المحب ، المتعلق بشغاف قلبها . . ثم دفعته عنها :

- لن أنسى . . سامحني حبيبي . . يجب أن أذهب الآن . . .

كان الفجر يشق دربه حين حاولت تشغيل محرك سيارتها الصغيرة التي بدد صوت محركها سكون الصباح . وكانت دموعها تنهمر بغزارة بحيث جعلتها ترى طريق القصر الداخلية المحيط بها شجيرات مزهرة

وكانت تجبر نفسها على عدم الالتفات إلى الحجارة الوردية وما خلفها من أشجار سرو سوداء . ثم فجأة كادت تنحرف بها السيارة من جراء سماعها صراخاً حاداً . . أهو ضحكة ساحرة مسرورة ؟ أبعدت ماريان بحزم عن تفكيرها ، وفكرت في أن الصرخة إنما هي صرخة طائر أزعجه هدير السيارة .

كان لها الطريق كله ، فداست على دواسة السرعة ، تقود بشراسة جنوباً ، وكأنما شياطين الجحيم تهدد باللحاق بها . . ولكنها مهما حاولت السرعة لن تستطيع الهرب من عذاب الضمير ، ولم ولن تستطيع نسيان عذابها عندما فضح سكوت أخاها أمامها . ففي الليل الطويل ، الذي تقلبت فيه وتلوت ، مخّصت الأفكار ثم نبذتها ، ووصلت أخيراً إلى فكرة شتتت بالها . لقد اعترفت أخيراً لنفسها أن تصرف سكوت كان مبرراً تماماً ، فعدم مبالاة هوارد بما ألحقه من ضرر للصبي ومحاولاته الوقحة رفض تحمل المسؤولية حين واجه النتائج ، كلها أمور تعرفها عنه . . ففي مرات عديدة سابقة تصرف بطريقة مماثلة لما وصف سكوت ولكنها سابقاً كانت تشك في براءته أما الآن فهي موقنة أنها الحقيقة . أخوها ضعيف ، كذاب ، مخادع ، وأنااني إلى أقصى الحدود .

ليلة أمس ، عادت مع سكوت إلى القصر بصمت . كان التجهم والتحفظ بادياً عليه ، أما هي فكانت كالبلهاء الشاعرة بخزي وعار .

تناهت نبوءة ماريان إلى أفكارها مراراً : « لن يمضي وقت طويل حتى تتركي هذا القصر وطعم المرارة على لسانك ! » ارتجفت وضعفت قدمها مرة أخرى على دواسة السرعة ، مندفعة بانفعال إلى ترك أرض السحرة واللعنات والتعجرف ، والرجال الغضابي وراء ظهرها .

كانت ما تزال منطلقة إلى لا مكان ، حين صدر عن المحرك صوت كالسعال ، فدمدم ، ثم توقف . اتجهت عيناها فوراً ، وبرعب ، إلى ساعة الوقود ، وقالت متأوهة :

- أوه.. راوينا! ما أشد حماقتك!

تشير السيارة إلى خلو السيارة من البنزين وهذا يعني أنه ليس أمامها إلا متابعة رحلتها سيراً على الأقدام. على أمل أن تحصل على قليل من الوقود من أقرب مزرعة أو من أقرب كاراج. راحت الشمس تزداد سخونة على ظهرها أثناء انطلاقها سيراً... في الثلاثين دقيقة الأولى تمتعت بحلاوة وعطر الصباح الباكر، وبعبير الأزهار المتدلية تحت الأوراق، لم يكن لها من رفيق سوى قطعان الماشية السارحة في الأراضي المكسوة بالعشب الجميل وكانت هذه القطعان ترفع رأسها بلا مبالاة بين حين وحين، نحو الفتاة التي تنظر إليها بتوتر من جهة السياج الأخرى.

كان الخوف من الأبقار ضعف لم تستطع راوينا التغلب عليه. كانت تكره هذا الخوف خاصة عندما تسمع من الناس أن هذه الحيوانات اللطيفة لن تؤذيها، ولطالما وعدت نفسها بأن تقهر خوفها بالسير رأساً إلى وسط القطعان لتربت على جلدها الناعم وتمرر يدها أمام أنوفها النازرة... ومع أنها اقتربت أكثر من مرة إلى ذلك، لم تستطع أن تفعل، فما أن تقترب من بقرة ترعى بهدوء حتى يطير من راوينا كل عزم، وتسرع إلى الباب خلفها، وهو باب تكون قد أقفلته مقتنعة أن البقرة الوديدة إما ثور أو عجل عابث.

ثم، شاهدت المزرعة التي بينها وبين المبنى، امتداد واسع من قطعان البقر السارحة... قفز قلبها بخوف، وقد أدركت أن أمامها خياراً أو أحد من خيارين: إما أن تكمل سيرها على أمل أن تجد مزرعة أخرى يسهل الوصول إليها، وإما أن تسير مباشرة إلى القطيع لتحرر نفسها وإلى الأبد من جبنها. وكان أن فتحت باباً في السياج وسارت في المرعى.

عندما وصلت إلى أول بقرة بدأت ترشح عرقاً ولكن حين رفع الحيوان رأسه ناظراً إليها بحزن وبلا مبالاة تنفست الصعداء وعندما لم

يعرها التالي الاهتمام ولوح الآخر بذنبه ارتفعت روحها المعنوية إلى درجة الاستهزاء من جبنها. قالت لعجل صغير أبيض الأنف: «يا لي من عصفورة مدنية جبانة! لا تخف مني لن أؤذيك!» ثم ضحكت عالياً تذكر الأوقات التي كانت تقدم هذه النصيحة إليها... اكتسبت الثقة مع كل خطوة، وبدأت تشعر بالبهجة من هذا السير الصباحي، ومن تغلبها على خوفها.

كانت في منتصف الطريق إلى المزرعة حينما شعرت بقشعريرة خوف، لم يكن لها سبب ظاهر. نظرت إلى ما حولها فإذا بها ترى أن الأبقار التي مرت بها، قد اصطفت في صف طويل وهي تسير الآن في أعقابها... فتصاعد الذعر القديم عاصفاً مرة أخرى، فحشت خطاها ثم أخذت تركض. ولما ألقت نظرة إلى الوراء رأت أن البقرات تقلد مشيتها، وكأنها تنوي أن تسبق جسدها النحيل الفار.

كاد الوهم يشعرها بأنفاس البقرات على عنقها، فبدأت تتوجه إلى فجوة كانت على مسافة منها ودعت الله ألا تقرر الحيوانات التي لم تمر بها، الانضمام إلى القطيع الهائج وراءها. اندفعت بقوة غير واثقة مما إذا كان سبب الصوت الذي تسمعه وقع الحوافر اللاحقة بها أم صوت الدم الضاج في أذنيها. كانت تنطلق بسرعة وعيناها مركبتان على المنزل ولكن عندما أحست بالأرض الصلبة تميد من تحتها وبجسمها يفرق بالوحد كادت الأنفاس تشق رثتها.

ما إن توقفت عن المسير حتى توقفت الأبقار على بعد أقدام منها لتتحلق حولها مراقبة تحركاتها بأعين واسعة مستاءة من الدخيل الصارخ رعباً الذي ظهر فجأة وسطها. بقرة منها كانت أجراً من الأخريات، رفعت راوينا قدمها من الوحل بصعوبة تنوي التراجع أمام الوحش الضخم ذي العينين الواسعتين الشريرتين والرأس المنخفض استعداداً للهجوم. لكن، حالما سحبت قدمها من الوحل فقدت توازنها

فانكبّت على وجهها في الحفرة المليئة برائحة الوقود. أعماها الخوف والشحم معاً، فتقلبت في الطين، مقتنعة أنها في لحظات، ستغرق في قبر لزج، فأخذت تقاوم ضغطاً غير مرئي كان يجرها إلى الأسفل شالاً أطرافها... راحت تقذف الوحل الكريه الطعم وتشهق صارخة... ثم أحست بيدين تظهران الوحشية والغضب، تشدانها ثم سمعت صوتاً مبهجاً رائعاً يصبح بشتائم رائعة.

- من بين كل الحمقى البلهاء المذعورين! بالله عليك اهدئي وأوقفي هذا العنف الشنيع!

كان لكلماته التأثير المطلوب، فتسمرت، وهي مغطاة من رأسها حتى أخمص قدميها بالوحل بحيث لم يكن من الممكن التعرف إلا إلى عينيها الكهرمانيتين المثبتتين على مخلصها.

صاحت:

- سكوت. أشكر الله لأنك وصلت في الوقت المناسب! لو مضت بضع دقائق أخرى لابتلعني المستنقع. كان أمامي إما الموت غرقاً وإما الموت تحت حوافر القطيع!

- هذا المستنقع، كما تسميه، لا يزيد عن بضعة إنشآت عمقاً، والأبقار هي أشد الحيوانات فضولاً على وجه البسيطة... فأني شيء غير عادي بشيرها... وحين تسير واحدة منها، تتبعها الأخريات. إن صرخة واحدة على القائد كافية لتشيتها كلها.

شكل فمها آهة عجب ثم أدركت أن مظهرها سخيف، فنظرت إلى ملابسها الموحلة هامسة:

- ماذا سأفعل الآن؟

قال بازدرء كان كوضع الملح على جرح الإذلال:

- ستعودين إلى القصر... ما زال الوقت مبكراً. وإن كنت محظوظة نقلناك إلى غرفتك دون أن يراك أحد.

كانا في منتصف الطريق إلى القصر، عندما سألت:

- كيف عرفت مكاني؟

- هناك طريق واحدة تتجه جنوباً من القرية.

- صحيح... ولكن، كيف عرفت أنني غادرت القصر؟ لم يشاهدني أحد سوى...

- ريموس!

آلمتها الخيبة:

- أخبرك؟

- بطريقة مراوغة غير مباشرة. لا تقلقي، لم يخلف وعده، لكنه وجد طريقة ملتوية. منذ ساعة أيقظني ليطلب كوب ماء، وبما أنني أعرف أن إبريقاً مليئاً موجود قرب سريره، ارتبت في الأمر ثم ازدادت شكوكي عندما أصرّ على أن أنزل معه إلى مكتبي قائلاً إنه سمع صوتاً أقلق منامه وهناك وجدت الرسالة التي تركتها لي على أمل أن أجدها بعد الفطور حين تكونين قد قطعت الحدود.

لم يكن في لهجته غضب أو ما يدل على الانتقام الذي وعد أن يكون إن حاولت الهرب. ووجدت راوينا هذا محيراً، خاصة وأن محتويات رسالتها تسرد خطتها التي أرادت بها إذلاله وبسبب الصداقة القائمة بينه وبين السير دوغلاس، شرحت له وضع علاقتها الحقيقي برئيسها.

لكن سكوت لم يذكر لها شيئاً من هذا كله، ولم تجرؤ هي كذلك على ذكره. كان هادئاً ولكن يديه كانتا تشدان على المقود حتى ظهر ابيضاض مفاصل أصابعه، أما عيناه فكانتا ترميان مشاعر لم تستطع تسميتها ولكنها أخافتها. أهى الكراهية؟ الاستياء؟ أم الثورة؟ قد تكون واحدة منها أو كلها مجتمعة... ولكن أمراً واحداً كان مؤكداً ألا وهو الجوّ المشحون بالخطر، فقد كان يجري بينهما توتر وهو جو مماثل

لذلك الجو الهائج الذي تتركه الصاعقة بعد أن تشق أجواز السماء محذرة من عاصفة وشيكة.

لم يكن في القصر روح تتحرك حين دخلاه... أما الصوت الوحيد فكان تكتكة الساعة الكبيرة في الردهة حيث الأثاث الثمين المرتب حول مقاعد موشاة بالذهب. كانت شمس الصباح الباكر تتلاعب بالتماثيل واللوحات الزيتية التي تظهر قسمات وجوه أسلاف العائلة المتجهمه، وكأنها تحديق بتحدٍّ ميال إلى التقدير الدخيلة الانكليزية الواقفة مرتجفة قرفاً من ثيابها المشبعة بالوحل. عندما أضاء شعاع من أشعة الشمس رجلاً نحاسياً قديماً زعمت ماريان متباهية أن قائداً عسكرياً إنكليزياً سلق في داخله حياً، أشاحت بصرها عنه بسرعة، تعزي نفسها بفكرة أن الاسكتلنديين هذه الأيام غير قادرين على محاكاة مثل هذا العمل أبداً.

لكن، حين قطع صوت سكوت البارد المتباعد الصمت الذي ران عليهما، بدأت تتساءل ما إذا كان الألم الجسدي أفضل بكثير من هذا العذاب النفسي.

- إن أسرع تصلي إلى غرفتك قبل أن يراك أحد. عليك البقاء في غرفتك حتى أرسل بطلبك. أمام ضيوفنا برنامج حافل هذا اليوم. جاك، سيرافق جماعة للقيام بصيد برّي وسيصحب الصبي معه... أما سيبيل، فستخرج لممارسة رياضة ركوب الخيل... وهذا ما سيخولنا الحصول على خلوة تامة تسمح لنا بالتحدث والنقاش. أنعلمين أن هذا النقاش ضروري؟

أخفضت رأسها تنظر إلى السجادة:

- أجل.

- حسن جداً، إذن، آنسة هافرشام. فلنر إذا كنت ولو لمرة واحدة ستطيعين أوامري دون إهمال. في الماضي أثبت أنك مثيرة للغضب،

مخادعة، لا يمكن الوثوق بها. وهذه كلها طباع إنكليزية، فلماذا لا تستبدلينها بأخلاق أسكتلندية؟

ردت ساخطة وهي تنظر إلى وجهه المرعب:

- كالتعجرف والقسوة والظلم، وقلة الإحساس؟ أهذه هي الصفات التي تفكر فيها؟ إن كنت لا تمنع سيدي اللورد فسأتمسك بمقاييس أخلاقي الخاصة. على الأقل نحن الانكليز، نعيش في الحاضر، ولدينا تعقل يكفي لنذكر أن يد الطغيان الحديدية، لن يُسمح بها في المجتمع الحديث!

حين تقدم خطوة يريد بها التهديد رفضت أن تذعر، فقال ساخراً:

- يا لك من متمردة. ولكنك كسائر النساء، تتمتعين بالعقاب الذي ينزل بك. هيا، كوني صادقة، اعترفي أن بنات جنسك يفضلن الرجال القساة على الرجال الذين يميلون كما يميل الخيزران... وأنا تجذبني عذراء تملك أطباع مومس.

ارتجفت راوينا من الإهانة فشهقت:

- أهكذا تراني؟ حتى بعد أن قرأت رسالتي، أما زلت ميالاً إلى الشك...

- الميال إلى الشك ليس هو الذي يشك دائماً بل هو من يتحرى... فلنقل إن تفكيري لم يغلق كل الإغلاق أمام الاقتناع. لذلك، استفيدي من الساعات القادمة ما وسعك إلى ذلك سبيلاً. راوينا الصيادة، حضري حجبك جيداً... فمن يعلم، قد تتمكنين من إقناعي بأنك قادرة على قول الحقيقة!

١٤ - المتعة والألم

بعد تمرغ طويل في مغطس غني بالعطر شعرت راوينا بالراحة ولكن استرخاءها ذاك لم يرح بال الخدر إلى مستوى الخدر اللامبالي. كانت كمن ألقى الألم على أحاسيسها ومشاعرها المرتجفة ملاءة سميكة. كان يمسكها بجو من الهدوء الزائف قبولها بواقع وصولها وسكوت إلى آخر المطاف. فالآن لم يبقَ عليها إلا أن تتحمل اللقاء الأخير، والوداع الأخير.

تناولت منشقة ناعمة جففت بها جسدها الذي دسسته بعد ذلك في روب الحمام، ثم دخلت غرفة نومها حيث تقدمت إلى مقعد النافذة، لتجلس حيث يمكن للشمس أن تدفئ جسدها، وتجفف شعرها الفضي. صبت اهتمامها كله على تسريح كل خصلة منه لتجنب التفكير فيه. ونسيت الوقت حتى سمعت أخيراً القهقهات وهذر الضيوف المغادرين القصر بحثاً عن أنواع مختلفة من المتعة. عندها علمت أنها لن تستطيع التأخر، ففتحت إحدى حقائبها ونظرت إلى المحتويات وهي تفكر أن لا حاجة إلى شيء مميز، ففستانان من أفضل فساتينها أتلفا حتى الآن. الفستان الذي ارتدته الليلة السابقة والبذلة التي ارتدتها هذا الصباح، البذلة الملقاة الآن على أرض الحمام.

لم يبقَ في الحقيقة سوى تنورة العمل وبلوزة بيضاء غالباً ما كانت ترنديها للمكتب. فتمتعت لنفسها بمرارة: «إنه ثوب مثالي لمواجهة

رجل سأربط ذكراه دائماً بالخشونة» ارتدت بسرعة ولكن يدها المرتجفة كادت تعجز عن إقفال سحاب التنورة وإغلاق أزرار البلوزة التي تصل إلى العنق ثم تقدمت إلى المرأة تصلح شعرها. فحدقت إليها صورة مرتجفة، تحاول منع الارتجاف عن شفيتها. مالت إلى تبني الهدوء والحزم ولكنها لما رفعت رأسها وجدت أن عينيها قد غسلتهما الدموع وأن شعرها الفضي يلمع كالشجاعة البراقة.

خرجت من أعماقها تنهيدة مهتزة ثم عند اندفاع دمعة أخرى إلى عينيها، أبعدتها، وارتدت على عقبيها بشجاعة نحو الباب.

ما إن وصلت إلى الدرج، ونزلت إلى القاعة الكبرى، حتى تناهى إلى سمعها الألحان الموسيقية. كان شخص ما يعزف على البيانو، براءة واندفاع عاطفي، وكأنه ينتزع الانتقام الغاضب من المفاتيح. ترددت وهي تعلم أن سكوت هو العازف المنتقم، وأنه اختار مقطوعة شوبان السوداء الشيطانية لتنسجم مع مزاجه. لا شيء على وجه البسيطة كان ليقنعها بالدخول في تلك اللحظة، فجلست على الدرج تنتظر وبقيت هناك حوالى النصف ساعة حتى استنفذ خلالها كل النار والعاصفة، ودخل في مقطوعة اهدأ... فدعت الله أن يكون غضبه الوحشي قد هدأ ثم تسللت بصمت من الباب النصف المفتوح، ووقفت بعيدة عنه قليلاً ويدها قابضتان بشدة بانتظار أن يلاحظ وجودها.

لكنه تغافل عن وجودها وظل يعزف عزفاً خفيفاً رقيقاً كان يتناقض مع الرجل الذي طالما ربطت به القسوة وعدم الإحساس. ولكن شعاعاً مضيئاً تلاعب بشعره الأسود أظهره أكثر إنسانية والطف وجهاً. لا! هزت رأسها بلا وعي، وهي تصحح أفكارها. فقد كان إنساناً ظالماً دائماً خاصة عندما كان يبرز رجولته الفظة.

جذبت حركتها رغم خفتها انتباهه، فارتفع رأسه وفي الوقت نفسه سحقت أصابعه المفاتيح فانتزع من أعصابها بذلك ارتجافاً غير متوقع.

راحت عيناه الضيقتان تعريانها، قال:

- تبدين أنيقة متممة! هل أفهم من هذا أنك ارتديت ما يناسب الدور الذي تنوين لعبه. دور الطفلة الكثيبة الحساسة إلى درجة الخوف من أن يُساء فهم تصرفاتها.

- لك أن تظن ما تشاء. لم أعد أهتم برأيك بي.

ظللت غمامة سوداء وجهه، فوقف ليعرج متوجهاً إليها، فتساءلت بسرعة عما إذا كانت تؤلمه أم لا. . . قال بغیظ:

- ما عدت مهتمة. . . يشير اختيارك للكلمات إلى أنك يوماً كنت مهتمة جداً.

ابتعدت عنه مشيخة ظهرها لمعذبها:

- ما من إفادة ترجى إن فكرنا في ما كان يوماً أو ما كان يمكن أن يكون. لو استمرت الأمور كما كان مخطط لها لكنت الآن في الطريق إلى إنكلترا. لقد وافقت على هذا اللقاء الأخير إنما لا لأتحمل منك الاتهامات، بل ليودع أحدها الآخر.

استدارت لتواجهه، وصدمت حين وجدته يكاد يلتصق بها. ولكنه أمسك كتفيها، ليثبتها كما هي وليتفرس في وجهها. فأحست بغضبه المكبوت يلذعها، وبيريق عينيه يرهقها. لم يكن قد أخفى ازدراءه لها، ولا كراهيته لوجودها في قصره، فلماذا إذن لا يصرفها بوداع سريع؟ هل هو الآن في مزاجه السادي المعتاد؟ هل يتمتع بعذابها؟ سمعته يقول:

- هل توقعت فعلاً مني أن أصدق الأكاذيب الكامنة في رسالتك التي تذكرين فيها أن دوغلاس لم يكن أكثر من رئيس طيب، وانك عملت معه عن كذب، واستضفت ضيوفه، وأنت قاومت إغراءات المجتمع العالمي في إحدى أكثر العواصم صخباً، محافظة على طهارتك نقية كالثلج؟

رنت ضحكته الساخرة في أذنيها كالرعد، وانخفض صوته إلى نمتة إغواء وأخذ يمرر أصابعه على شفتيها المرتجفتين:

- نعم كهذا. . . كيف يمكن أن تكوني صادقة؟

كانت مثبتة على جسده الصلب بسرعة خطفت أنفاسها، فأمسكت بقميصه تتعلق به بشدة، وإرادة، وتعقل، وصفاء تفكير! جعلتها وحشية عناقه تقاوم بكل ذرة من روحها لتتحرر منه ولتخدم الصخب الملح الذي راح يتسارع داخل عروقها. كان يعانقها بكراهية، وكأنه يشتهي جسدها ويرفض القلب الذي وصفه بالمتقلب، ينظر إليها كأمر تافه كأنثى مفيدة فقط لتخليص الذكر من إحباطه.

فجأة أحست بأصابعه تعبت بأزرار البلوزة. . . فقاومته بكراهية، تكرهه وتكره دموع الضعف التي قفزت إلى عينيها. . . إنه لا يستحق دمة واحدة. . . إنه كريبه، وحش ضار، تكرهه! ولإنها عالقة بين ذراعيه القويتين لم تجد سوى دفاع واحد. . . فرفسته، رفسة قوية حاقدة على عظم ساقه فأطلق شهقة ألم واستغراب. ما إن تحررت من ذراعيه حتى أطبقت أسنانها على ذقنه كأنياب فخ حديدي، لتخرج الدماء منه.

- اللعنة. . . !

وكان رده صارماً، مذلاً، وسريعاً. فقد أطبقت يدها المتوحشتان على عنقها، وأحست بعضلات عنقها وهي تستعد لتلقي الضغط. . . ولكنها انصدمت وجللها الخجل حين أمسك قماش البلوزة الرقيق بقوة هائلة ومزقه من العنق حتى الأسفل. منعتها الصدمة من الكلام، وحدقت إليه برعب، أما هو فبدا للحظة قصيرة مذعوراً من جنون ما فعل. ولكن تلك اللحظة كانت كافية لتهرب منه. فركضت في القاعة ومنها إلى الردهة، فالدرج فغرفتتها. كانت مضطربة، منفعلة، بحيث لم تشاهد الجسد النحيل المنزوي الذي دخل إلى الردهة من الباب الرئيسي، ولم تع ذلك أن من يلاحقها أوقفه عند حده صوت السير

دو غلاس السائل بنبرة من لا يصدق ما يرى :

- سكوت ! ماذا فعلت بالله عليك !

ظلت راوينا في غرفتها ما يكفي من وقت لترتدي سترة سميكة فوق جسدها المرتجف، ثم وبعد أن تأكدت من خلو الطريق أمامها هرعت باكية إلى الخارج من باب القصر الخلفي مقتنعة تماماً أنها ومن أجل سلامتها يجب أن تترك القصر وممتلكاته حيث يقبع الشيطان ملكاً. كانت تركض بدون تفكير في الممرات بين الأشجار، وحينما أوصلتها أقدامها إلى الفسحة المحيطة بالمنزل الصيفي صدمت. كان الباب ويا للصدفة السعيدة مفتوحاً، فتسللت بكل امتنان إلى الداخل، وانهارت فوق المقعد الخشبي، كومة مرتجفة، مصابة بالغثيان والحيرة.

بعد ساعات وجدها ريموس . . شاهدت ظله أمامها على أرض المنزل حالما ارتفع صوته :

- أتلعبين لعبة الاختفاء آنسة هافرشام؟

انتفضت عضلات جسدها من وضعها المتكور، وردت كاذبة :

- أوه . . أجل . . ريموس .

جلس قريبا على المقعد :

- هذا ما ظننته . يبحث عمي سكوت عنك منذ ساعات . ولكن

حين طلبت منه أن أشاركه في اللعبة، نظر إليّ بغضب وطلب مني الابتعاد عن طريقه . . فقررت التفتيش عنك بمفردي .

- ألم تخبر أحداً . . أين تظن أنك ستجدني؟

ضحك والتصق بها :

- لا . . فهذا مكاننا السري، ولا أريد أن يعرف به أحد . . ثم يبدو

أن الجميع ناثر ومضطرب . أعتقد أن عمي سكوت وصديقه تشاجرا مشاجرة رهيبة .

كرهت نفسها لتشجيع الصبي على سرد الأقاويل ولكن الضعف

البشري جعلها تحته :

- صحيح؟ عمن كان الشجار بحسب اعتقادك؟

- كان عنك على ما أظن . . لم نسمع أنا وأبي سوى أطراف

الحديث ولكن أثناء مرورنا بغرفة الاستقبال سمعت السير دوغلاس يوبخ عمي قائلاً : «يجب أن تجد تلك الفتاة وتطلب منها الغفران بكل تواضع، مع أنني لن ألومها إذا رفضت أن تتنفس الهواء الذي تتنفسه أنت، بعد تجربتها هذه!»

كان يقلد صوت السير دوغلاس العميق الرنة، وازداد زهواً بنفسه

حين رأى الاهتمام على وجهها :

- ثم صاح عمي سكوت والشحوب والصدمة تعتليان وجهه وكأنه

مريض : «اللعنة دوغلاس . . لقد افتعلت المشاكل في كل اتجاه! لماذا

لم تخبرني من قبل؟» ثم بدا على السير دوغلاس الإشفاق على عمي

فقال بلطف : «لأن مشاعر سكرتيرتي شأنها الخاص، وليس لدي عادة

تحليل مشاعر موظفي . في الواقع، ما كنت لأتدخل الآن لولا إحساسي

بالرعب من الانطباع الخاطيء الذي كونته أنت عنها .»

تحول صوت الصبي ثانية إلى لهجة الأمر الواقع :

- ثم أخذنا يبحثان عنك . . هل ستسامحين عمي سكوت لأنه

أزعجك آنسة هافرشام؟

استجمعت راوينا شتات ذاتها فخجلت من نفسها لأنها استخدمت

الصبي لإرضاء فضولها، وقالت :

- لم يعد الأمر يهم الآن ريموس . . فلن أبقى في القصر لحظة

أخرى إن استطعت .

ثم لمعت في تفكيرها وسيلة للهرب، فسألته بسرعة :

- أتقدم لي معروفاً؟ أرجوك اذهب وابحث عن السير دوغلاس ثم

أحضره إلى هنا . . فقط السير دوغلاس، أنفهم؟ لا تستدع أحداً غيره!

انزلق إلى الأرض على مضض :

- حسن جداً . . حين أجده أهمل له لئلا يسمعي أحد سواه ، ولن أتأخر . فأنا واثق تماماً أين أجده .

حين ابتعد ، أسندت راوينا ظهرها إلى المقعد ، تدلك ذراعيها براحتي يدها لتتخلص من الوخز الذي يحمله إليها البرد ، فالمنزل أصبح بارداً ، والعتمة بدأت تتسلل والظلال طالت تحمل دلائل الوقت الطويل الذي أمضته هنا ، فارتجفت وشعرت بالغثيان من الحالة التي كانت عليها هذا الصباح حين أخرجها سكوت من الوحل . . وخجلت من التفكير في ما حصل ، وتمسكت بالتفكير في العودة سالمة إلى شقتها ومنها إلى بروكسل حتى تتمكن من نسيان هذا الاسكتلندي البربري الذي عرّى عقلها كما عرّى جسدها من كل كرامة . . . خالت نفسها مرة تحبه ! ورقدت ليالي وهي تتخيل ذراعيه تحضنانها ! ولكن المرأة تكون بلا عقل وقاسية لتقضي العمر كله مع رجل كهذا . . وهي ليست كذلك بل على العكس ، إنها تتألم بسرعة ، وعاطفتها رقيقة متسامحة إلى حد الغباء . . إنها لمحظوظة لأنها ستتخلص منه .
إذن . . لماذا البكاء ؟

استسلمت لتدفق الدموع التي كبحتها طويلاً ، تضع ذراعيها على حافة النافذة لتستخدمها وسادة لرأسها المتألم ولدموعها المتدفقة بقوة شلال .

كادت دموعها تجف حين سمعت صوتاً حبس عليها أنفاسها فتساءلت عما إذا كانت تتخيل ذلك الصوت الذي يدعوها باسمها . . وسمعته مجدداً :

- راوينا !

رفعت رأسها ، ثم أحست بالخوف من الظل الذي ملأ المنزل .
وبدا في صوت سكوت القلق :

- أرجوك لا تخافي مني .

لكنها كانت أشد انهياراً من الاهتمام برجائه . فشهقت تقول :

- اذهب عني ! لا أريد أن أكلمك !

- صدقيني . . أفهم وأحترم مشاعرك . . لن ألمسك . . لن أقرب

خطوة أخرى . ليتك تصغين إليّ فقط .

اعتبر صمتها قبولاً ، فدسّ يديه القابضتين بشدة في عمق جيبي بنطلونه ، وطفق يتحدث بصوت خفيض :

- لن أهينك بمحاولة تبرير تصرفي ، لكنني أحس أن عليّ على الأقل شرح الدوافع الكامنة وراء عملي . . تعلمت منذ ولادتي ألا أثق بإنكليزي . . . ولم يقم إلا القليل من بني عرقك بما يغير رأيي الراسخ . . كان دوغلاس حتى وقت قريب الاستثناء الوحيد . . ربما بدأت أتغير قليلاً تجاهكم حتى جاء أخوك ليعيد إلى مشاعري القسوة . . وهكذا حين وصلت أنت ، ورغم عدم معرفتي بالصلة التي بينك وبينه . كانت معاملتي لك خشنة حتى التطرف ولكن ، أثناء عملنا معاً توصلت تدريجياً إلى التعرف إلى مزاياك ، ولم أستطع سوى الإعجاب بهذه المزايا . وكنت مستعداً تقريباً للاعتراف بهذا حين وصل دوغلاس ، وعندما رأيتهما معاً ثار جنوني وشعرت نحوك بكره وازدراء جعلاني أتصرف بطريقة مخالفة لطبيعتي . . أردت أن أولمك . قلت لنفسي إن لتصرفاتي رغم قسوتها تبريرات كثيرة .

سحب نفساً عميقاً ثم أردف :

- ثم . . . صدمت حينما اكتشفت أنني رغم مقاومتي وبغضي لضعفي أمامك وقعت في حبك . . والكراهية التي تعتمل في نفسي إنما هي لنفسي لأنني لأول مرة في حياتي لم أكن قادراً على السيطرة على مشاعري التي تتسارع بجنون كلما اقتربت مني . . وفيما خلتني أعاقبك ، كنت أعاقب نفسي أيضاً . رفضت تصديق تفسيراتك ورفضت

تصديق حتى ما قاله لي دوغلاس، الصديق الوفي الذي طالما وثقت به. إلى أن جعلني أخضع للمنطق بقوة. ورغم ترده في التحدث عن مشاعرك، شرح لي عمق بغضك للعلاقات العابرة. وأخبرني عن العديد من الرجال الأثرياء من ذوي النفوذ والوسامة الذين فشلوا في تجاوز حدود الصداقة الباردة معك. وهذا برأيه كان درعاً لحماية مشاعرك الرقيقة السريعة التأثير.

مرز يده على عينيه، وكأنه يمسح عنهما مشهداً كريهاً ستبقى ذكره عالقة في ذهنه إلى الأبد. ثم أردف بلهجة خفيفة مريرة:

- بت دون شك تكرهيني كرهاً عميقاً. أنا آسف حقاً على كل الألم الذي سببته لك، راوينا. لكنك أردت هذا أم لم تريديه ستحصلين على انتقامك. فأسوأ عقاب قد يقع عليّ يوماً هو لحظة خروجك من حياتي.

سمعته يرتدّ على عقبه ماشياً يعرج ببطء، رفعت رأسها فرأته بعينين أغشتهما الدموع شبحاً يتحرك فوق العتمة. فصاحت بنحيب يقطع القلوب:

- سكوت...!

تحول ظله الطويل إلى حجر. لم يستدر، ولم يتكلم. بل وقف فقط ينتظر متوتراً، بدون حراك، كتفاه محنيتان إلى الأمام، رأسه منخفض، وكأنه مستعد لتلقي الاتهام الذي لن ينكر أنه يستحقه.

فتشت عن الكلام. بدا اعترافه لها صادقاً مذهلاً. ولكنها سبق أن أساءت الفهم وهي تعرف قدرته على إيقاع الألم بأوتار قلبها بتمثيله الرائع. مع ذلك. ما أشدّ رغبتها في أن تصدقه.

- قلت. قلت لي مرة من قبل إنك تحبني، وبدوت لي مقنعاً يومذاك كما تبدو الآن...

استدار ليوواجهها:

- لا. راوينا. عليك حتى وإن لم تستطيعي تصديق كلامي أن تشعرني أن هناك اختلافاً كبيراً. في المرة الأخيرة وقفت موقف الدفاع، يحولني الشك وأنت تبكين على كتفي متوسلة إلى شيطان. «دعني أحظى بليلة واحدة من السعادة!» ولكنك، حتى وأنا أمسكك بين ذراعي، كنت تتأمرين على إذلالني.

انحنى رأسها اللامع، واعترفت مرتجفة:

- كان كلانا يماثل الآخر خداعاً. لهذا ربما نستحق معاً أن نعاني.

بدا صوته وكأنه يتمسك ببصيص نور في قلب الظلام.

- إنما ليس إلى الأبد راوينا.

أرسلت أنفاساً طويلة، ثم رفعت رأسها تبحث عنه:

- لا. فيحق حتى للمجرمين نشدان الحرية في النهاية!

طارت نحوه لتضمها ذراعه القويتان إلى صدره. ربطتاها برباط

من فولاذ تشدانها بقوة إلى جسده. وقال متأوهاً:

- راوينا. يا صاحبة القلب الحلو المسامح!

ثم عانقها بجوع وحب لا حدود لهما. جفت الدموع عن

وجنتيها. وأصبحا روحاً واحدة في جسدين، يروي كل منهما ظمأه

وعطشه إلى الآخر. كان عناقهما بلسماً شفى جرح كل كلمة فظة

خشنة وكل عمل مؤلم وطرده آخر بذور للشك. والريبة. تعلقا

ببعضهما بعضاً يرتجفان سعادة. يتأملان ملياً كيف تمكنا من الخلاص

من الفراق الذي لا تطيق التفكير فيه، فكيف بتنفيذه.

قال متوسلاً وهو لا يزال بحاجة للاقتناع:

- أترزوجيني حبيبتني؟

تنهدت:

- أجل. أرجوك حبيبي المتوحش.

فضمّها إلى قلبه أكثر وأكثر متأوهاً آهة الحب، يشاركها سعادة

عميقة عمق الصلاة التي كانت تحركهما على وقع موسيقاها. باركت
نعمة الخجل الموروث فيها الذي أبقاها حتى الآن دون مساس. لقد
حافظت على طهارتها للرجل الذي ستكون له وحده.

حين خفف سكوت قبضته عنها لينظر إلى وجهها المسحور الشديد
الاحمرار، شاهد ضباة صغيرة تعتم بريق عينيها فسأل:

- ما الذي يقلقك... ويخفف لمعان العنبر في عينيك... أهو شك
آخر...؟

هزت رأسها، ثم بخجل، همست:

- سيكون لنا أولاد... أليس كذلك؟

ضحك وهو يضمها ثانية إلى صدره متمماً بخبث في أذنها بلهجة
الاسكتلندية:

- يا إلهي يا امرأة! طبعاً يا حبي... يجب أن يكون لنا أولاد لنزيد
عدد العشيرة... لا أضمن أن يكونوا من ذوي الشعر الأحمر كريموس
أو من ذوي الشعر الأسود كوالدهم... ولا أضمن أن يتجنبوا جميعهم
لعنة العرج في عائلة سايتون...

لفت يديها حول عنقه:

- لكنني أضمن ذلك.

أمسك بيديها يضغطهما بقوة:

- عديني أنك ستحبيني دوماً... وأنت لن تتركي طباعي الشيطانية
تقودك بعيداً عني.

وقفت راوينا على أطراف أصابعها لتهمس في أذنه:

- إياك أن تكون غير متأكد من حبي حبيبي... فأنا لك من الآن
وحتى يوم الممات.

كان رده دالاً على الندم، ولكنه في الوقت نفسه مليئاً بوعد مشير.

حين شاهد ريموس الجسدين في عتمة الليل كجسد واحد وهو

يقود السير دوغلاس من يده إلى منزل القش، نظر إلى السير دوغلاس
بقلق:

- يا إلهي... ستزعج الأنسة هافرشام... لقد وجدها عمي سكوت
أولاً.

ضحك السير دوغلاس فدهش الصغير، ولكن السير رفعه بين
ذراعيه ليعود به إلى الممر الموصل إلى القصر... واكتملت حيرة
الصبي حين سمع تمتمة السير دوغلاس:

- لا يمكن للمرء أخذ وردة دون أن يعاني من وخز شوكتها... وما
ألذ المتعة بعد الألم!
